

١٣٢ الإسلام

مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿١﴾.

من هؤلاء المتلصصون على قدس الله المختانون لأمانته ، الكاتبون بأيديهم وبأهوائهم ما يكتبون ، والقائلون لما كتبوا وما كذبوا هذا من عند الله يحتالون بذلك على الناس ليأخذوا من دنياهم ، ثم لا يزالون أن تتحطم بذلك عقباهم وتخزي به احرارهم ؟.

ومن هم اولئك المراوغون المختالون الذين لا يذكرون شريعة الله إلا حيث لا تكلفهم عناءً ولا تصطدم لهم ببغية ؟

ومن أولئك الطامعون في أن يتعبد لهم الأنعام كما يتعبدون لبارئهم وأن يدينوا بأقوالهم كما يدينون بشريعته ؟ من هؤلاء وأولئك الذين ناقشهم القرآن الحساب وأوعدهم أشد العذاب ؟.

أليسوا هم المحترفين باسم الدين المتاجرين بشرائعه ؟

﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ (٢).

إن هؤلاء المتكبرين من الناس يشربون لأن ينازعوا الله حقوقه ويطمعون في أن يقاسموه سلطانه فلا مساغ معهم لهدنة ولا مكان لمسالمة وان الحرب معهم لطويلة شديدة فان لم نخضعهم في هذه الحياة الاولى ولم ينيبوا الى ربحهم ويسلموا إليه أمره فلسوف تمتد معهم الى الحياة الاخرى :

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (٣).

١ — البقرة ، الآية ٧٩ .

٢ — الأعراف ، الآية ١٦٩ .

٣ — الزمر ، الآية ٦٠ .

الدين في ينايعة الأولى^١ ١٣٣

ويسوعي أن أشير إلى موقف المسلمين من هذا الحكم ، وإلى مقدار حرصهم على الوقوف أمامه !. ويسوعي أن اعترف بأيد تخطيط ثم لاتي عن الخط واهواء تلعب ثم لا تكف عن اللعب !. ويسوعي أن اعترف بأن هذا الموقف المزري وهذه الايدي العابثة هي التي مكنت للطاعين أن يشيعوا قالة السوء عن الإسلام. ومن للانصاف بأن يفهم هؤلاء أن حقائق الإسلام غير اعمال المسلمين ؟!

والفروق. والفرق ؟

انها النتائج المعلومة المحتمومة لركوب الارؤس وامتطاء الاهواء ، وانها اول القائمة التي يباذها الإسلام ، ويشن عليها الحرب العوان ، وآيات الكتاب تجعل الغارة على الأهواء أول عمل يبدأ به الدين. ولا غرو فالأرض لن تكون صالحة للغرس الطيب المجدي حتى تستل منها آخر جرثومة من الطفيليات والاعشاب السامة.

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾^(١) ، أرأيت ؟ ان الآية الكريمة لتكاد تقصر اهداف الله من شرعه في ان يقام دينه ولا يتفرق فيه !. ثم اقرأ اذا شئت قوله سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعًا لِّسَتٍ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِيَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾^(٢).

١ — الشورى ، الآية ١٣ .

٢ — الأنعام ، الآية ١٥٩ .

لست منهم في شيء ..

إنها المقاطعة التي تعلن بها الحرب .. وإنها القذيفة الأولى التي تبتدأ بها.

ليس الرسول منهم في شيء ، وإذا لم يكن الرسول منهم في شيء فليسوا من الحق ولا من العزة ، ولا من النصر ، ولا من المنعة ، ولا من لطف الله الشامل ورحمته الواسعة ، ليسوا من هذه كلها في شيء .. إنما امرهم إلى الله ... إلى الله وكفى ، فهو ولي أعمالهم وهو ولي جزائهم ، وإذا كان دين الله هو السبيل المستقيم الذي ينتهي بالإنسان إلى رشده ويفضي به إلى كماله فالتفرق — لأمحالة — ينحرف بالإنسان عن الاستقامة ويخرج به عن السبيل ويتعد به عن الغاية.

والقرآن يذكر المتفرقين من أهل الأديان ، ويذكر البواعث التي فرقتهم ، والمعرات التي لزمتمهم ، يذكر ذلك ويشرحه ويكرره في كثير من المناسبات ليعتبر المؤمنون بما حدث ، وليحذروا الانزلاق إلى مثله ، فإن البواعث بذاتها هي البواعث وإن التبعات بأعيانها هي التبعات :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ^(١) .. ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيَا بَيْنَهُمْ ﴾ ^(٢).

التفرق شؤم مصدره البغي وسبيله الضلال وغايته العذاب العظيم والتفرق خروج على نظام الوحدة الذي بنى عليه الإسلام ، وفصم لعرى

١ — آل عمران ، الآية ١٠٥ .

٢ — الشورى ، الآية ١٤ .

الدين في ينابيع الأولى^١ ١٣٥

الاخوة التي وثقها القرآن ، والمتفرقون دخلاء أدعياء ، ليس الرسول منهم في شيء ، وليسوا هم من منهجه على سبيل.

هذه نظرة الإسلام للتفرق ، وهذا حكم القرآن على المتفرقين .. ولكن.

ما يصنع الإسلام والقرآن إذا لم يقدرا لهما اتباعهما على العهد ولم يقوموا معهما بالحق ؟

ما يصنع دين محمد ﷺ وكتابه إذا اشترى أشياع محمد بدينه ديناً من أهواء وكتباته كتاباً من أهواء ، فاعتصموا بغير حبل الله واستمسكوا بغير ما أمر الله ؟ وما على دين الله من حجة بعد هذه المقدمة ، وما على كتاب الله من غضاضة بعد هذه النذر.

وأخيراً أسمع قرآن محمد يدحض هذه الشكوك قبل أن تورد ويصد هذه التهم قبل أن تولد ؟!

وقالوا : الدين عامل مؤقت اضطر اليه الانسان في طفولته الاجتماعية ، يوم كان مفتقراً الى من يمسك بقياده في التوجيه ، وإلى من ينوب عنه في التشريع. ولقد احسن القيام بوصايته على الانسان إذا استثنينا كبوات بان فيها ضعفه عن القيادة ، وانحرافات عرف بها قصوره في الملاحظة.

وعلى أي حال فمن الحق على البشري أن يعترف له بهذه اليد وان يشكر له هذا الفضل ، من المحتم على البشري ان يعترف الدين بالقداسة وان يكن له الحب وفاءً بالحق.

أما وقد رشد القاصر واستقل التابع وأدرك الصغير ، فلا مسوغ لدوام الوصاية ، ولا مبرر لفرض السيطرة ..

وقائل هذه الشبهة — على ما يبدو — اشرف خصاماً وانظف سخيمة اذا

كان في السخائم ما يعد نظيفاً ، وبعد فهي شبهة تنشأ — على الأكثر — من قلة الخبرة بمهمة الدين وضالة العلم بمناهجه ومآربه.

ومن يجهل وجوه الحاجة الى الدين والنياييع الاولى لعقائده والركائز الاصيلة لتشريعہ يحسب انه قانون كهذه القوانين التي يضعها الانسان تقتضيه مناسبة ، وتحدده بيئة ، فاذا حالت مناسبتة أو اختلفت بيئته وجب أن يطرح أو ان يعدل.

ونظرة حرة منصفة فيما ذكرناه من الوجوه وفيما لم نذكره منها تذهب بآثار هذه الشبهة وبغيرها من الشكوك ..

أما سقطات اخذا هذا القائل على قوامه الدين فلا أجد وقوعها ولا أتعرض للمعذرة عنها. ذلك انني لا ادعي نزاهة اي دين ، ومن ينكر التباينات تؤخذ على اليهودية والمسيحية القائمتين بله غيرهما من اديان الأرض ؟ ومن ينكر وهنهما عن قيادة الانسانية في عصورها المتقدمة فضلاً عنها في عصورها الحديثة ؟

ولكنني اعود فأقول : ضعف دين أو أديان معينة عن القيام بالاعباء لايعني ضعف الديانات اجمع. ومن حمل دينا اوزار غيره فقد جار عن القصد وشط في الحكم. وأتحدّى الباحثين اجمع ان يقيموا ولو شاهداً واحداً ضعف فيه الإسلام عن القيادة. فهل يستطيعون ؟

وقالوا : إن الدين إذا امتلك المجتمع وتغلغل فيه عقيدته واستتب عليه سلطانه ، وسيطرت عليه أحكامه أصبحت مراسيم ذلك الدين عادات

الدين في ينايحه الأولى^١ ١٣٧

اجتماعية القاهرة لا محيد من أن تطبق ولا سبيل لأن تخالف ، وأصبح المحيط الاجتماعي قوة صارمة لتنفيذها والرقابة الشديدة على مخالفتها وأصبح الفرد مطالباً بالطاعة العمياء لها ، لأنها مما يفرضه مجتمعه ولا يجوز له التسامح فيه ، ولم تعد بعد مجالاً للتفكير لتقبل أو ترفض مع دعوة البرهان ، ولا موضعاً للخيرة لتطاع أو تعصى بمحض ارادة. وتفقد موازين الصحة ، وتلتبس امارات الحق وتنتفي فائدة التدين.

وقد عني واضع هذه الشبهة أن يلبسها أردية فضفاضة ، وأن يقيمها على أسس من علم النفس وعلم الاجتماع فطول ومدد. وما ذكرناه خلاصة وافية. بمراده وهي على مازوقت لها من عبارة وبذل في تركيزها من جهد لاتبلغ بقائلها ما يريد.

لاتبلغ به ما يريد في دين لايقبل الايمان الاعمى والخضوع الأبله ، ولا يقيم لهما وزناً ولا يدخلهما في حساب.

ولا تبلغ به ما يريد في دين لايرتضي العقيدة حتى تمكن لها الحجة ولا يحفل بالعمل حتى يحضه الاخلاص ، ولا يعبأ بالايمان حتى يغرسه وينميهِ الاختيار الحر.

ولا تبلغ به ما يريد في دين ينشر دلائله في كل صوب ويكشف حقائقه لكل ناظر ، ويتيح الفرصة الكافية لكل متأمل.

والإسلام حين يمتلك المجتمع ويستمكن فيه روحه وتسيطر عليه تعاليمه لابد وأن يطبع الروح الاجتماعي العام بطابعه ، ولا بد وأن يقفه عند حدوده ، فلا يخدش حرية الفكر ، ولا يهدر حقوق الفرد ، ولا يضيع حرمة الاختيار.

وبعد كل ذلك فلن تفقد موازين الصحة ، ولن تلتبس امارات الحق ولن تنتفي فائدة التدين.

وبعد ذلك أيضاً فقد جعل الإسلام للمسلمين فيما بينهم ولاية التواصي بالحق والتأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحراسة لحدود الله وحرماته ، وهي ولايات يبتغيها نشر الحق في أرحب دائرة تستطاع وبسط العدل في أكبر مجال يمكن وهي ولايات يقتضيها التأزر على إقامة دين الله بعد استبانة هداه والتزام نهجه.

بعد استبانة هداه بالبرهنة القوية ، وبعد التزام نهجه بالاختيار الحر .
فهي اذن لا تمس حرية الفكر ولا تطلُّ حرمة الاختيار.

* * *

وقالوا : الدين يؤدي الى الكبت والى ازدواج الشخصية.
فمن دأب الغرائز المودعة في الانسان انها تقوى الانطلاق ، ومن دأب الدين أنه يكافح هذه النوازع ، والمتدين من بني الانسان قد يقوى فيه عنصر الدين ، فيعمل على قمع الغرائز وقهر ميولها وخنق رغباتها ، وهذا هو الكبت المؤدي الى القلق والى الصراع النفسي الدائب ، والى العقد النفسية الشديدة.

فان الغرائز لن تفتأ تتحرك لتنتقل ، والدين يوالي عليها ضرباته لترتد ، ويستمر الصراع ويشتد الضغط ويربو أثره. وترد الرغبات والانفعالات مكبوتة الى أعماق النفس ، وتتحول في منطقة (اللاشعور) عقداً لا تحل واضطرابات لا تقاسى.

وقد تقوى دفعة الغرائز. فينتلق المرء انطلاق المنهوم وراء شهواته

الدين في ينابيعه الأولى^١ ١٣٩

وينكمش عامل الدين في زاوية من زوايا النفس ، يتحفز ليشور ، ثم ينظر الى الأمر الواقع فيخضع ، والمرء بين العاملين المتناحرين قد يستولي عليه الشعور بالخطيئة فيأأس ثم ينعفس وقد يغلب عليه الرجاء ، فيلي غريزته بالعمل ، ويقنع تدينه بالأمل ويستقمص في ذاته الواحدة شخصيتين مؤمنة راجية ، فاسقة غاوية.

وقد يحار ويرتبك ويشذ ويشرد. وعلى أي حال فالواقع يعمل عمله ، والانسانية تهوي وتحطم والدين يشكو ويتبرم.

أسمعت ؟ ولعله أنفذ سهم ظنّ الناقدون أن العلم يسدده الى مقاتل الدين.

وانه لسهم نافذ قاتل ، ولا مهرب عنه أبداً لدين يحمل الحملة الشعواء على واقع الحياة ، ولا مهرب عنه أبداً لدين ينكر الضرورات الاولى في الانسان فيقمعها أو يحاول قمعها.

وإن ديناً هذه صفته ليستوجب ذلك وأكثر منه. ليستوجب الحرب من العلم ، والحرب من الطبيعة ، وأول من يحاربه الله الذي جعل هذه الغرائز في تركيب الانسان ، وأمدّه بها. فما أودعها في كيانه سدى ، وما ركبها فيه لتكبت وتظلم ويتقرب اليه تعالى بكتبها وظلمها !

ومحال على الله أن ينقض ما يعمل بما يقول ، ومحال على حكمته أن يشرع مالا يستطيع ، نعم وكل ذلك سديد لامرية فيه. ولكن أيُّ صلة لذلك بالدين الحق ؟.

بدين يقدر هذه الضرورات حق قدرها ويفي بها حق وفائها.

دين الإسلام يعترف بضرورات الحياة وبضرورات الانسان ، ولا

١٤٠ الإسلام

ينكرها ولا يتنكر لها ، ويرى من الحق أن تغاث لهفتها وأن تحاب. وقد يجد من الظلم المحرم أن لاتغاث ولا تحاب.

بلى. وقد يرتفع بالاستجابة المشروعة العادلة فيجعلها عبادة توجب القرب من الله وتسبب المثوبة لديه. ولتفصيل هذا بحث آخر من حلقات الكتاب.

دين الإسلام يعترف بهذا كله والمسلم يدين الله به ويستعين الله على ادائه. ولكن الإسلام يعلم حق العلم أن غرائز هذا المخلوق البشري كثيرة وان رغباته وأشواقه أكثر. وأن شؤونه واتجاهاته في الحياة وفي لوازم الحياة أربى من هذه الكثرات بكثير. ويعلم حق العلم أن نشاط المرء وطاقته الحيوية لن تفي بهذه النواحي كافة ما لم توزع توزيعاً عادلاً لاحتيف فيه ولا عدوان.

وقد أثبت العلم التجريبي أن التشويز في بعض غرائز الانسان أو في بعض رغباته لا يكون إلا على حساب بعضها الآخر ، فاذا استهلكت بعض نواحيه مزيداً من الطاقة فلا بد وأن يضعف نشاطه في ناحية توازيها. وإذا مالت الكفة بشأن من شؤونه فلا بد وأن تخف الثانية بشأن يعادله !

لقد عرف الاسلام ذلك جيداً واثبتته العلم وحققته التجربة ولم يعد مجالاً للشك.

واذن فلا معدل عن التحديد ، ولا معدل عن النظر في مقدار مايجب ، وفي مقدار ما ينفق.

انها طاقة الحياة فلا معنى للتسامح في إنفاقها ، وانها حقوق تتكافأ وتتقابل بين الغرائز والجهات الكثيرة فلا معنى للتساهل في حدودها.

وضبط الغريزة وتحديد مطالبها غير كبها وإبادة ميولها.

والطب الذي يعرف جوعة المعدة الى الطعام ويعرف كذلك فاقعة الجسد اليه لا يكون كابتاً لهذه الضرورة إذا حدد للمعود أكله ومأكله. والقانون الذي يعترف بالطاقة الجنسية ويعلم بالحاحها الشديد على الانسان لا يعد كابتاً لهذه الغريزة إذا حرّم تصرفها بطريق غير قانوني أو بغير رضى من الطرفين على أقل تقدير.

لا كبت في الإسلام ولا انطلاق. بل موازنة ومعادلة.

موازنة في النشاط الحيوي المبذول ، ومعادلة بين الحاجات المقتضية.

أما أن يتمرّد مسلم أو مسلمون (!) على نظم دينهم فيصابوا بالكبت أو

ينالوا مغبة الانطلاق فهذا وزر لا يحمله منصف على الدين.

موازين ونتائج

الدين ضرورة تقتضيها كل خافية من خفايا الانسان وكل ظاهرة من ظواهره ..

والدين نظام تشير الى الحاجة إليه كل ذرة من ذرات هذا الملكوت وكل حركة من حركاته.

هذا ما فصلنا مجمله في البحوث السابقة وأقمنا على ثبوته وجوهاً من البرهان.

واذا كان من الأديان ماهو حق يجب الخضوع له ، ومنها ماهو باطل يلزم التجنب عنه ، فلا بد للدين الحق من شيات يمتاز بها عن الدين الباطل ليرفض الانسان مايرفض منها عن علم ، ويقبل ما يتقبله منها عن هدى. وقد أفدنا من بحوثنا الماضية عدداً من هذه المميزات ، وعلينا أن نرجع إليها إذا اردنا التمييز.

فقد عرفنا أن الدين الحق مانفذ الى اعماق دخيلة من دخائل النفس ، وابعد غور من أغوار القلب ، وادق مسرب من مسارب الروح ، فأقام العدل

في جميع هذه الأنحاء ، وأشاع التوازن بين عامة هذه الاصقاع. فلم يغفل غريزة من رشفه ولم يهمل خليقة من تهذيبه ، ثم لم يخالف حكم الطبيعة الحكيمة التي ركبت هذه الأشياء في الانسان ، فلم يحف على جهة منها في حكم ، ولم يتحيز للاحية منها في تشريع.

وعرفنا ان الدين الحق ما وهب الضمير الإنساني بصيرة نفاذة الى الحقائق وطاقة مطبوعة على الخير ، وزوده بالاقيسة العادلة والموازن المعصومة ثم بسط سلطان هذا الضمير على ارادة الفرد ، ومد رقابته الى اعمال الغير مداً رقيقاً يحقق به معنى التعاون على البر والتواصي بالحق ، ولا يمس به كرامة الاختيار.

وعرفنا أن الدين الحق ما كان للمجتمع البشري روحاً حياً يكون وحدته ، ونظاماً ثابتاً يشد علاقته ويضبط حدوده ، وعقلاً مرشداً يدبر حركاته ويوجهه في اعماله. ثم قوة وازعة تتولى صون العلائق فيه وتنفيذ الحقوق ..

وعرفنا أن الدين الحق ما شمل الانسانية بجميع حدودها وتخومها ، وبكل عناصرها وظلالها ، فلم يختص بعنصر منها دون عنصر ، ولم يميز فريقاً منها عن فريق ..

هذه الالوان الثابتة نملك ان نتعرف على الدين الصحيح متى اردنا ذلك ، وعلى هذه الموازين نستطيع أن نعرض الاديان المختلفة اذا اردنا احقاق الحق منها وتزييف الزائف. أما ادلة هذه الفتاوى فقد تقدم البعض الكافي منها في الفصول السابقة.

ولا أغلو فأزعم أن كل واحدة من هذه الخصائص سمة مستقلة تكفي

بمفردها للتعريف بالدين الصحيح. لا أقول هذا ، فإن تعيين الدين الحق لا يكفي له وجود خاصة واحدة من خصائصه مهما كانت الخاصة مهمة فيه.

والشيء الذي لا ريب فيه أن فقد أية سمة من هذه السمات في دين من الأديان حجة قاطعة على قصور ذلك الدين ، وان اجتماعها مكتملة فيه بينة على أنه دين الإنسانية الحق وسبيلها القاصد الى وجهة الكمال ودليلها المأمون الى استقامة الفطرة.

وإذا كان الدين هو المنهاج الصحيح لرقى الانسان الى كماله الاختياري المنشود فمن الحتم ان تجتمع فيه هذه الخلال.

من الحتم أن ينفذ الى ادق خفية من خفايا المرء وإلى أوضح ظاهرة من ظواهره ، الى جميع خصائصه فرداً وإلى عامة علاقاته مجتمعاً ، ثم الى المجتمع البشري في كل اجزائه ومقوماته وفي كل اعماله وغاياته ، الى صلة الانسان بالحياة التي تعمه وبالكون الذي يضمه وبالمكون الذي يدبره.

كل هذه ميادين لنشاط المرء في فكره ونشاطه في عمله ، وكلها مؤثرات عميقة التأثير في نشاطه في فكره وفي نشاطه في عمله ، فمن الضروري للدين أن يتصل بها كافة متى أردنا أن يقدم لإنسان المنهاج التام لكماله التام.

أما طبيعة التشريع في الدين الحق فيجب أن تكون مرتكزة على الملاحظات العميقة لكل هذه الانحاء والموازنات الدقيقة بين مقتضياتها.

اذن ففي ضوء هذه المميزات لا بد لنا أن نستعرض الإسلام إذا أردنا ان نبحث عن صحته ، أو اردنا أن نخوض في اسراره.

البشرية نوع واحد.

فالكمال الاعلى الذي تبتغيه كمال واحد.

والسبيل الذي تتجه فيه الى ذلك المقصد سبيل واحد ، ولا مزية في شيء من ذلك.

البشر نوع واحد ، هذه هي المقدمة الأولى التي يقوم عليها الاستنتاج ، وهي بديهية الثبوت ، وهل يدخل في روع عاقل أن البشر أكثر من نوع واحد ؟.

فالغاية القصوى التي يؤمها هذا النوع غاية واحدة. وهذه هي النتيجة الأولى ، والمقدمة الثانية ، وهي واضحة ثابتة كوضوح المقدمة الأولى وثبوتها ، فإن السنة المتبعة في هذا الكون وفي جميع ذراته ، وفي جميع بسائطه ومركباته أن لكل نوع واحد منها غاية واحدة ، وليس بمقدرة الانسان أن يشذ عنها ، لأنه لا يملك أن يشذ عن نواميس الكون.

فالقانون الذي يصل البشر بغايته قانون واحد ، وهذه هي النتيجة الثانية ، وهي واضحة أيضاً وثابتة بعد وضوح المقدمات وثبوتها فان المبدأ الواحد والنهاية الواحدة لن يصل بينهما أكثر من خط مستقيم واحد.

والبشرية مجتمع واحد فهو بحاجة الى نظام اجتماعي واحد.

ويهدمه ويصدع وحدته أن يكون له أكثر من ذلك.

والركائز الحقيقية لهذا المجتمع واحدة فلا يشتق منها أكثر من قانون واحد.

هذه الفكرة المستندة الى هذه اليقينيات هي فكرة الإسلام عن (الدين) وقد جرى عليها في جميع أشواطه ، وباستطاعة الباحث أن يقرأها صريحة

في كثير من نصوصه ، فقد جرى عليها لما هتف بالانسانية جمعاء بكل شعوبها وأجناسها ليجمعها على الصراط الواحد المستقيم.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١).

ولما انذر العالمين اجمعين بالخسران إذا هم ابتغوا غير دين الله منهجاً واتبعوا غير وحيه دليلاً :

﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢).

بلى. ومن يتنكب سبيل السعادة فلا بد وأن ينتهي الى الشقاء ولا بد وان يشعر بالخسران في نهاية المطاف.

وأديان السماء كافة — في رأي الإسلام — دين الهى واحد وضع بوضع الشريعة الاولى واكتمل باكتمال الشريعة الاخيرة ، ولم يختلف الا بما تفرضه سنة التطور ، ولم يتبدل إلا بما يقتضيه سير الحكمة وحاجة المجتمع. فدين الله هذا الذي أرسل به رسوله الاكبر هو بذاته دين الله الذي اوصى به أنبياءه السالفين ، وفرض على الناس أن يقيموه ونهاهم أن يفرقوا فيه :

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^(٣).

١ — الأنعام ، الآية ١٥٣ .

٢ — آل عمران ، الآية ٨٥ .

٣ — الشورى ، الآية ١٣ .

والرسل المطهرون من مبدأهم الى ختامهم انما يدعون الى اعتناق ملة واحدة لا تشعب فيها والى عبادة رب واحد لا شريك معه :

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ ^(١).

وقد جرى الإسلام على هذه الفكرة لما لازم بين اديان السماء في العقيدة وربط ما بينها في الايمان ، فالمؤمن لن يكون مؤمناً حقاً حتى يصدق بكل من بعث الله من نبي وبكل ما نزل الى الانبياء من كتاب وبكل ما أوحى اليهم من شريعة :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ^(٢).

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ^(٣).

وقد جرى عليها ايضاً لما سير الانسان من اضعف مشاعره الى اقوى صلاته ، ومن ادنى خواطره الى ابعده غاياته ، ثم وازن بين غرائزه القوية والضعيفة حين تصادم ، وبين غاياته القريبة والبعيدة حين تتقابل ، وحين صعد نظرتة في الانسان الى حدوده العليا ثم صوبها الى حدوده السفلى ،

١ — المؤمنون ، الآية ٥٢ ، ٥١ .

٢ — النساء ، الآية ١٣٦ .

٣ — البقرة ، الآية ١٣٦ .

ليجمع كل هذه المحاري في مجرى ويؤلف جميع هذه المختلفات في وحدة ، على هذه الفكرة جرى الإسلام حين صنع ذلك ليعد للانسان نظامه الواحد الذي لا اختلاف معه ، القيم الذي لا التواء به ، السمع الذي لا حرج فيه ، العام ماوجد فرد من ابناء الانسان ، الخالد مابقيت حياة على ظهر هذا الكوكب. أما دلائل هذه الدعوى فيجدها الباحث في كل حكم من احكام الإسلام وفي كل هداية من هدايات القرآن. وستعرض لبعضها في الكتاب اذا امدنا الله منه بالتوفيق.

على أن الفكرة المتقدمة لا اختصاص لها بدين الإسلام ، ولا يدعي الإسلام انه يختص بها دون ماسواه من الاديان ، فهي فكرة رسالات الله عامة ، وقد رأينا الإسلام كيف يقرر هذه الوحدة بين اديان السماء وكيف يقيم على هذه الوحدة ربطاً وثيقاً في عقيدة اتباعه ، رأيناه كيف يجعل منها سلسلة واحدة موصولة الحلقات متماسكة الاجزاء فالسابق منها مهاد للاحق ، والاخير امتداد للاول.

والتفسير المفهوم لهذا الترابط هو ان الاديان في رأيه تنفجر من ينبوع واحد ثم تسير في مجرى واحد الى مصب واحد. نعم وما بشارة أوائل النبيين بأواخرهم ولا تصديق اوآخريهم لأوائلهم إلا تثبتت لهذه الفكرة وسير مع مقتضاها.

ذلك ان الايمان ببعض رسالات المرسلين واغفال سائرهما أو الجحود به معناه الاول اقتطاع الجزء عن كله ، ومعناه الاخير عدم الايمان بذلك الجزء ايضاً ، لأن الجزء لا يستقيم ولا يؤدي وظيفته مبتوراً ، فلا محيد من تصديق النبيين بعضهم بعضاً تمكيناً للغاية وتوجيهاً للإنسانية.

وإذن فالإسلام يجد أن شرائع السماء تتحد معه في القاعدة المتقدمة وتتحد معه كذلك في كل سمة يمتاز بها الدين الحق.

على اننا نلاحظ ما يخالف ذلك في الأديان الموحدة المنسوبة الى السماء ، وهذا إنما يدل على تحريف ماسخ يبعد هذه الأديان عن الصور الحقيقية لشرائع الله الاولى ، اما الفكرة المتقدمة نفسها فلا ريب فيها بعد ان مكن لها البرهان وعززها اليقين.

واعتراف الإسلام بأديان السماء الصحيحة لا يعني اعترافه بهذه الصورة الشائنة الممسوخة التي لا تجتمع وإياها في الفكرة ولا تنفق معها في الخطأ ، وقد لا تتحد معها بغير الاسم ... وللبحث صلة تأتي ان شاء الله تعالى في فصل قريب.

﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ^(١).

بهذه الآية الكريمة الحكيمة يوضح الله غايته من تشريع الدين ورفع قواعده.

ليطهر الناس المؤمنين به المتبعين لأحكامه ، وليتم نعمته عليهم ، هذه الغاية التي ابتغها ربّ الناس للناس من تشريع دينه ووضع أحكامه.

تطهير وإنقاء .. ثم تزكية وإعلاء.

إنه هدف مزدوج على ما يبدو ، وكل شيء يرام أن يؤخذ به الى غاية فلا بد من إعدادها لها ولا بد من تصفيته من أضرارها. والنفس البشرية جهاز كالأجهزة لا يجدي نفعاً ما لم تنظف أعجاله ومحركاته عما يعلق بها من أدران ، وعما يقر في خزائنه من رواسب ، ولا يجدي نفعاً ما لم يحسن مديره كيف يوجهه الى العمل المطلوب وكيف يستخدمه للانتاج الحسن الكثير.

تطهير وانقاء ، هذا هو المآرب الاول الذي يعمل له الدين.

أجل. فالنفوس من أهوائها ومطامعها معوقات تصدها عن الخير وعليها من سواها مؤثرات تصرفها عن الاستكمال ، وللنعم أضرار من صفات الانسان تمنعها عن التحقق. ولها حواجز من ملابسات الانسان تعتاقها عن التمام. ولا مناص من اجتناب هذه الآفات ، وإقصاء هذه الغرائب اذا لم يكن مناص من بلوغ الغاية. والمعوقات المذكورة تتمثل في كل عمل محظور نهي عنه دين الله ، وفي كل صفة ذميمة منعت منها إرشاداته وفي كل غاية وضعية حرمت السعي اليها تعاليمه.

ثم تزكية وإعلاء ، وهذا هو المآرب الثاني من مآرب الدين ، وهو كذلك دور اتمام النعمة على حد تعبير الآية الكريمة ، وبهذا تتم الغاية التي أرادها الله يوم وضع العقيدة وشرع الشريعة.

وواجب الدين في الدورين المذكورين أن يعد الذرائع المبلغة الى المدى ، وان يوجه النفوس بصفاتها وبأعمالها الى الهدف ، ثم عليه غير ذلك أن يكون الغايات المتفرقة حتى يرجعها الى غاية ، وأن يضم المسببات المختلفة حتى يجمعها في مسبب هو الغاية الكبرى للدين والكمال الاقصى للبشر والنعمة

العظمى لجاعل الدين وخالق البشر.

على الدين أن يهَيِّء الوسائل المبلغة وأن يمهّد السبل المستقيمة ، وأن يتيح الفرص الكافية ، وأن يقيم الدلائل الواضحة ، وأن ينشر الدعوة الحكيمة. أما الاستجابة للدعوة وسلوك السبيل واغتنام الفرصة ، أما ذلك فهو من شؤون المرء ذاته. فليس من خليقة الدين أن يكره ، وليس من حكمة الله أن يضطر ، وليس من كرامة الانسان ان يجبر.

الانسان ذاته هو الذي يتحكم في عقبي أمره فيحرز لنفسه الفوز أو يكتب عليها الخسار.

والهدفان المذكوران مترتبان في طبيعتهما ، فما يكون لنفس أن ترقى وأن تستكمل وهي لاتزال ملوثة السرقة العالانية ، وما يكون لنفس مثقلة بالجرائر مرتكسة في الخبائث أن ترتفع الى منال الكرامة.

وطبيعي أن تنقى الأرض وأن تستأصل ما في تربتها من جرثومة أو آفة قبل أن تبذر فيها أول حبة أو تغرس فيها أول نبتة.

وآفات النفوس ومعوقاتها عن طلب الخير — كما قلنا من قبل — تفوت الحصر وتمتنع على الحاصر ، وهي كذلك غير محدودة الوقت ولا محدودة الأثر. ومقتضى ذلك أن يستمر التطهير مادامت مظنة للتلوث ومادامت مظنة للانتكاس.

ومن أجل ذلك كانت مهمة الدين مركبة أو مزدوجة طوال الحياة.

ومن هنا كانت عنايته بطب الوقاية تضاهي عنايته بطب العلاج.

ومن هنا كانت محرماته تربو على واجباته ، وكانت تحذيراته أشد تغليظاً من ترغيباته.

ومن أجل ذلك أيضاً وثق الإسلام ما بين الغائتين في الأسباب ولازم ما بينهما في التحقق حتى أصبحت أسباب التطهير بذواتها أسباباً للترقية ووسائل الترقية بأنفسها ووسائل للتطهير ، فقد قال مثلاً في الكتاب الكريم :

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ ^(١).

وقال : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ ^(٢).

يصنع الدين ذلك لأنه يرى أن افراد الغائتين في المنهاج تضيع للزمن وتفريط بالفرصة. وقد ينتهي بالانسان الى الحرمان من الغاية ، ولأن التكامل الاختياري في مدرجة الرشيد كالتكامل الطبيعي في سائر القوى الطبيعية كلاهما نمو متصل مطرد لا مجال فيه لوقفه ولا مساع لابطاء. وبعد ففي الآية الكريمة إichاءات يحمل بنا أن نقف على قليل منها.

يريد ليظهركم. وليتم نعمته عليكم ، لهذه الغاية شرع الله الدين ووضع اسسه وأقام بناءه ، ليتم نعمته عليكم ، وإن النعم موجودة موفورة على الانسان منذ يوم خلق ، إلا انها لا تستتم حلقاتها الا بالدين ، ولا تبلغ تلك الحلقات غايتها المرجوة المحمودة ولا تؤتي ثمراتها الزكية الطيبة إلا باتباعه.

١ — النساء ، الآية ٣١.

٢ — هود ، الآية ١١٤.

هذا ماتوحي به الآية أفليس الواقع كذلك ؟

ومن البين أن أسبق النعم على المرء هي نعمة الوجود ، وان جميع النعم الاخرى متفرعة على هذه في التكوين ، ومن البين كذلك أن نعمة الوجود لن تصل الى تمامها الا يوم يصل الموجود الى ذروة كماله.

وماذا في الانسان غير وجوده (إذا صح منا هذا التعبير) ؟.

ماذا فيه غير كيانه المادي الخاص ، وغير الحياة التي تعمّر الكيان ، والعقل الذي يدبر سلوك الحياة ؟.

فيه أجزاء مادية داخلية وخارجية يتألف منها الجسد ، وفيه قوى وطاقات آليّة وإرادية يبرز فيها نشاط الحياة ، وفيه أشواق وغرائز تشير الى ضرورات ذلك الجسد وطاقات تلك الحياة. وفيه أشياء كثيرة وعجيبة تدهش العقل وتحير اللب.

فيه هذه المجموعة الكبيرة من الأشياء المختلفة التي يقوم بها كيانه وتستقيم بها حياته ، وكل واحد من أشياء هذه المجموعة نعمة كبيرة على الانسان لا صلاح له بدونها ، ولو أنها فقدت أو نقصت منه لتعذرت عليه حياته أو لتنعّصت عليه معيشتة واضطربت أحواله.

فاذا استعرضنا هذه المجموعة واستقرأنا ما فيها من أجزاء ومظاهر وخصائص وجدناها مليئة بالخوافز والاستعدادات. الاستعدادات للتكامل الانساني والخوافز على طلبه والحصول عليه.

وحتى نمو الانسان الطبيعي والاجهزة الكثيرة التي تعمل له ، والطاقات الكبيرة التي تنفق فيه انما هي إعدادات لتلك الغاية.

فاذا كان الدين هو المنهاج الذي ينال الانسان به رشده ويستكمل

به غايته فهو دون شك متم هذه النعم لانها لن تستكمل فعليتها الا يوم اتباعه.

فالدين متم هذه النعم بمعنى أن تشريعہ يضم نعمة كبيرة الى أعدادها الكثيرة.

الدين متم هذه النعم بمعنى انه السبيل الذي تبلغ به نهايتها.

وبعد أن يستحق الدين هذه الصفة ، وبعد أن يكون بحق هو المتم لنعمة الله على عبده ، فلا محيد من أن يكون تشريع الدين حقاً لله وحده ، ولا مساغ لأن يدان فيه لأحد سواه. هذا ماتوحي به الآية أيضاً. أفليس الحق هو ذلك ؟

الله وحده مفيض نعمة الوجود في ابتدائها ولا شريك له في ذلك ولا ظهير له عليه ، أفلا يكون من حقه وحده أن يكون مصدر هذه النعمة في استكمالها وان لا يكون له فيها شريك ولا ظهير ؟ والله وحده هو الذي استودع الانسان نزعة التكامل ومكن له في طبيعته وأعد له قواه ومشاعره ، أفليس من حقه وحده كذلك ان يسن له المنهج الذي يتكامل فيه وان يهديه سبيله ويقيم له دليله.

الدين حق خالص لله فلا يؤخذ إلا منه.

والكمال البشري غاية الله من تكوين الانسان فلا يرجع في رسم حدوده ولا في تعيين سبيله الى أحد سواه. هذا ماتوحي به الآية الكريمة وهذا ما يجب أن يكون ، ألم نقدم جميع هذا مبسوطاً بدلائله ؟.

ولست أريد الاستقصاء ففي الآية لفتات اخرى حول الدين وحول الانسان ، وفي القرآن الكريم إيضاحات أخرى لهذه المضامين وفيه

آيات حجة تصف الدين بانه تطهير وتركية وبأنه اتمام للنعمة وشفاء لما في الصدور.

* * *

ينظر العقل المستنير في أي شيء يلقيه من اشياء هذا الكون ، فيرى وجود ذلك الشيء متوقفاً على غيره ، فاذا نظر الى ذلك الشيء الثاني وجدته كالاول حادثاً معلولاً لشيء ثالث ، فاذا ارتقى مع سلسلة الأسباب وجد الحكم مطرداً في كل حلقة منها ، وهكذا في كل شيء وفي كل سبب ، وكل ذلك محسوس متيقن.

وهكذا يثبت لدى العقل من هذا الاستقراء الشامل ، حكم متيقن شامل هو (أن كل موجود حادث ليفتقر الى سبب موجد) ، وهذا الحكم الاستقرائي المطرد هو قانون السببية أو قانون العلوية.

على أن هذا القانون أبين لدى العقل من أن يستعين عليه باستقراء بل واطهر من أن يفتقر في اثباته الى برهان ، إنه من بدائة الفطرة فلا يرتاب فيه أحد ، حتى الاطفال لأول عهدهم بالادراك.

يسمع الطفل صوتاً فلا يرتاب في ان له مصدراً ، ويمد عينيه الى جهة الصوت يفتش عن مصدره ، وينفتح الباب فلا يتردد في ان له فاتحاً ويظل طامح البصر اليه يبحث عن فاتحه ، ويتمادى به الفضول فيسأل عن مبعث ما يراه من حركة ، وعن سبب ما يحس به من امر ، وقد تحدثنا عن هذا فيما تقدم.

وكل انسان ذي شعور يفتح عينيه على هذه الحياة يتساءل في نفسه عن سرها وعن بداءة تكوينها وعن سببها الذي اوجدها يوم كانت ، وعن أمور

كثيرة تتعلق بها ويعن في تفكيره ، ويطلب من نفسه أو من غيره اجوبة لهذه المسائل ويسميتها مشكلة الكون ومشكلة الحياة ثم إما يؤمن بالسبب الاعلى لهذه الكون واما يلحد ، فما الذي يحده الى التساؤل وإلى التعميق في الطلب ؟

إن فراغ النفس من بذور الفكرة وجذورها معناه الغفلة عنها وليس معناه الالتفات اليها ثم الشك في تحقيقها والنتيجة لذلك ان يصبح الناس غافلين عنها الا أن يثيرها لهم مثير.

ما الذي يحده بالمرء الى التساؤل ثم الى الاحاح فيه لولا قانون السببية الذي يحسه بفطرته ؟.

نعم. ذلك القانون الفطري هو البذرة الاولى للفكرة ، ثم إما توكله للانسان نظرة تفصيلية في مشاهد الكون فيؤمن ، واما يعارضه هوى مخالف في النفس فيلحد.

وحلق العلم وتوالت كشوفه وتتابعت خطواته ، في الطبيعة ، وفي الفلك ، وفي الأرض. وفي المعادن. وفي الجماد. وفي النباتات. وفي الحياة. وفي الأحياء. وفي الانسان وفي مختلف جهات الانسان. وفي عناصر هذه المركبات ، وفي طاقاتها ، وفي الدقائق التي تأتلف منها العناصر. والوحدات التي تتكون منها الطاقات. وفي كل ماتناله التجربة وتبلغه الآلة.

وكشف قوانين تدبر هذه المكونات وقوانين تشد بعضها ببعض. وقوانين تحفظ علاقات بعضها ببعض ، وماهذه الخطوات وما هذه الكشوف الا اطراد لقانون السببية أو اطراد لقانون الغائية.

وكم اثبتت المشاهدة العلمية اثراً ، فقال العلم : لابد هنا من سبب لأن الفرض لا يتم بدونه ، ووقفت المشاهدة ووقفت الآلة لأتهما لا يمكن أن يقولوا شيئاً ، وأصر العلم على قوله ، ومرّ زمان والعلم يقول ، والمشاهدة لاتقول. ثم ثبت ذلك للعلم ، وثبت للتجربة وثبت للمشاهدة وما قصة اكتشاف الكوكبين (نبتون) و (بلوتو) والسيارات الصغرى الواقعة بين المريخ والمشتري ، وما قصص هذه الاكتشافات الفلكية من العلم ببعيد.

وجاء قوم فانكروا قانون السببية وأنكروا شهادة الفطرة وانكروا شهادة الاستقراء. انكروا جميع ذلك لينكروا نتيجة واحدة من نتائجه ، هي دلالة هذا الصنع العظيم على صانع أنكروا كل ذلك ثم وقفوا عند شهادة العلم لأنهم لا يستطيعون أن يقولوا فيه ما قالوا في سواه.

وأخيراً ألجأهم الموقف أن يعترفوا بقانون السببية في جزئيات الكون ، في مجالات العلم للتجربي فقط ، فيما تستطيع ان تكشفه الآلة ويناله الاختبار. أما الطبيعة ذاتها ، وأما المادة التي يقوم بها بناء هذا الكون فلا يجب أن يكون لهما سبب.

لماذا ؟

لأن السبب الذي يتحدث عنه الالهيون لا يناله الحس ، ولا تبلغه الآلة ولا تدركه التجربة ، أما ائتلاف المادة وقيام المكونات فمنشؤه المصادفة.

وليتهم يستطيعون أن يقيموا دليلاً واحداً محسوساً على هذا الاستثناء الغريب ، وأقول محسوساً لأنهم لا يدينون بغير الحس على ما يقولون.

وبعد فما أعتى القوانين العقلية على الاستثناء وما أكثر الحقائق التي

موازنين ونتائج موازين ١٥٩
تستعصي على التجربة ، أما المصادفة والاتفاق والتعاليل المضحكة التي
ينحدر اليها تفكير الانسان في هذه المجالات فلها بحوث اخرى من غير هذا
الكتاب.

* * *

﴿ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾^(١).

وهذا نهج آخر من التدليل يسلكه القرآن الكريم ليوحد الارباب في
ربّ ثم ليحصر الأديان في دين.

وكلمة الربوبية في لغة العرب تدل على مزيج من معاني العظمة والرفعة.
ففيها معنى السيادة وفيها معنى المالكية وفيها معنى الرعاية والتربية
الحكيمة.

والتربية حين يطلقونها يريدون منها تنشئة الكائن وتغذية جسمه
وروحه وتنمية مداركه ومواهبه ، وتعهدته بالتهذيب والتقويم حتى ينمو
ويستكمل ، وحتى ينال غايته المرجوة من النمو والاستكمال. وإذن فكلمة
الرب في الآية تدل على معنى التدبير الحكيم للمربوب بايتائه النظام التام
لكماله التام.

وشيء آخر وضعته الآية الكريمة موضع التسليم ، فلا ينبغي أن يثار
حوله جدل ، ولا ينبغي ان يسمو اليه ارتياب ، فان العقول اسمى خطراً من
أن تمتري في حق أو تجادل في برهان. ذلك الشيء الذي لاريب فيه أبداً هو
أن الله رب كل شيء ، فهل فيه مرية ؟.

ان هذه حقيقة الحقائق ، ودلائلها ملء الكون وملء الامكان وبعدد ما في هذا الملوكوت من ذرة ومافيه من طاقة ومافيه من قانون.

ما في هذا العالم الرحب إلا أثر ، والاثر لن يحدث أبداً دون محدث ولن يستقيم دون مقيم ، وما في هذا العالم إلا مقدر تستعلن فيه الحكمة ، وتستبين فيه القدرة ، ثم لايزيله أثر التدبير والتقدير ما اطرد له البقاء ، وماقتضى له الابداع.

أفما ترشد هذه الخليقة الى خالق ثم هذا التدبير الى مدبر ، وهذا الاتقان الى حكمة ، وهذه الدقة الى علم؟؟.

ثم الا يدرك اي عاقل متبصر أن للكون وحدة شاملة كاملة في نظمه وفي حركاته وفي مجاريه وفي غاياته؟.

وأخيراً — وقد أتاح العلم للانسان أن يبصر اشد من بصره وأن يحس أبعد من احساسه — فقد وجد أن الوحدة الكونية حتى في الذرة التي يتألف منها بناء الكون ، وفي النظام الذي يحتويه تركيب الذرة ، وفي الطاقة التي يتقوم بها ذلك النظام ، والتجاذب الذي يتم به تأليف الكون وتستقيم حركاته وتترابط أجرامه ، ثم في هذا التناسق المدهش بين أجزاء هذه المجموعة ، الحي منها والجامد ، المتحرك منها والساكن ، التناسق الذي يكشف عن قانون واحد عام يدبر مجموعة القوانين.

أفليست هذه الوحدة المتكاملة دليلاً على وحدة في قوة الايجاد والتدبير؟.

أوليس هذا الطابع الواحد الموجود في عامة الأشياء رمزاً إلى صانع واحد؟.

والآية الكريمة بعد هذه التوطئة وهذا التوضيح تقول : إذا كان الله هو المدبر لكل شيء في الكون المربي له في كل دور القيوم عليه في كل آن ، وإذا كان تديره للموجودات كلها على وفق أنظمة دقيقة لا تخطئ ، وعلى نهج حكمة صالحة لاتضل ، إذا كان الامر كذلك فلماذا يحاول الانسان وحده أن يشدّ فيبتغي له رباً آخر لم يعهد له الحكمة ومدبراً لا يأمن عليه الضلال ؟

أليست التربية في الدين فرعاً من مطلق التربية وإذا كانت كذلك أفلا تكون حقاً خالصاً لله رب كل شيء ؟.

أغير الله أبغي رباً وهو ربّ كل شيء ؟ هذا تساؤل يتوجه به القرآن إلى العقل المفكر ليوحى اليه أن كل ماسوى الله خاضع ومربوب فلا يصح أن يكون رباً ومدبراً. وإلى المنطق الحرّ ليعرفه أن إنقياد المرء في الدين لايسوغ لغير العلة التي يخضع لها في التكوين. وإلى الفطرة الواعية ليقول لها : ان الكون بجملته يجري على سنن واحد ولا يملك الانسان أن يشذ عن قاعدة الكون :

﴿ أَغْيَرَ دِينَ اللَّهِ يَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾^(١).

* * *

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغْيَرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ

١٦٢ الإسلام
شَاءَ وَتَسْؤُونَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿١﴾.

وفي هذه الآية الكريمة يلتفت القرآن لفتته الحازمة إلى هذه التزعة المستكنة في أعماق الانسان ، نزعة التعلق بغيب مجهول ، والتوجه إلى قوة مسيطرة عليا يستمد منها التدبير ويسند اليها التقدير.

هذه التزعة القوية التي عصفت بالانسان منذ عصوره القديمة فلم يستطع الا أن يتوجه ، ولم يملك الا ان يستجيب ، وإن قصر به التفكير فلم يحسن الاستجابة وزاغ به الخيال فلم يفلح في التصوير.

قصر به التفكير فكانت استجابة عبودية عمياء ، وزاغ به التصور فكانت آلهته حجارة صماء.

إلى هذه التزعة القوية الخفية التي قال كثير من علماء النفس وكثير من علماء الاجتماع وكثير من مؤرخي الاديان : إنها غريزة من غرائز النفس ، وقد دللنا على صحة قولهم هذا في بحث سابق.

إلى هذه الغريزة المؤمنة يلتفت القرآن في هذه الآية ليدل الانسان على ركيزة الدين من نفسه ، وعلى برهان الربوبية من فطرته !!.

يطلب المشركون من الرسول ﷺ آية تثبت لهم صدقه في دعوى الرسالة ، فبم يجيبهم الرسول على طلبهم هذا ؟.

وما أعدله طلباً وما أحقهم به لو كانوا يرومون منه تركيز العقيدة وتعزيز الايمان ، وما كان الرسول ﷺ ليرك الآيات التي تثبت لهم صدقه حتى يطلبوها ، فانه ما ارسل إلا للبلاغ وإلا لاقامة الحجة ، ولقد أقام لهم من قبل

هذا صنف البينات وأبان لهم ضروب الحجج وقرعت أسماعهم آيات الكتاب ، وهل فوق ذلك من مطمع ؟

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(١).

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ ^(٢).

انهم يطلبون من الرسول آية تثبت صدقة بعد كل هذه البينات وبعد كل هذه الدلائل فما معنى ذلك ؟ وبم يجيبهم الرسول على طلبهم هذا ؟ وانهم لا يسألونه برهاناً يرشد العقل ، ولا يطلبون منه بيينة تركز الإيمان ، ولو كانت هذه طلبتهم لكانت لهم فيما أبداه بلغة. بل يحتكمون عليه نزول آية تخرق النواميس وتعجل لهم العقوبة ! فبماذا يجيبهم رسول الرحمة على هذا الاقتراح الغريب ؟

سنقول : إن الإسلام في غنى عن اللجوء الى الخوارق ، فما في الكون إلا آية تدل على صدق رسول الإسلام. وما في الكون إلا معجزة تؤيد له دعوته ، وسنقول أيضاً : من طبيعة الآيات التي تخرق النواميس انها تأخذ النفوس بالايمان أخذاً ودين محمد ينشد الإيمان الحرّ المكين القائم على الحجة ، المرتكز على الاقتناع ، الايمان الحر الذي يتشر به العقل وتمتلي به النفس.

١ — العنكبوت ، الآية ٥١.

٢ — الزمر ، الآية ٢٣.

ولكن ما يصنع هؤلاء ؟ إنهم يطلبون منه آية من هذا النوع الذي يخرق النواميس. وخرق النواميس الكونية ليس أمراً تافهاً ليحجب إليه كل من يتشهاه.

ان الله وضع القوانين الكونية وفقاً لحكمة لاثميد ولا تضعف ، واطلق حكمها في الأشياء بارادته وعلمه ، ولن يطل الله قوانينه ولن يخلف حكمته مالم تعارضها حكمة خاصة هي أجدر منها بأن تراعى وأحرى بأن تطبق وليس منها البتة هذه الإقتراحات البليدة التي يتبناها العاثنون.

وخرق النواميس آية حاسمة لانظرة معها ولا مهلة ، فإما الايمان بعدها وإما الدمار.

ذلك أن المصدَّ على الكفر بعد هذه الآيات مصر على عناد ، وقلبه قلب موبوء لايرجى صلاحه ولا تؤمن عدواه ، ومن الخير للمجتمع أن يحسم منه هذا العضو.

ولكن ما يصنع الرسول هؤلاء ، انهم طلبوا منه ذلك ، وأصروا عليه إلا أن يكون : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ؟ ﴾ ^(١) هذا هو سياق الآية الكريمة.

وها هنا ، وفي معرض اقتراحهم الغريب ، وفي مجال طلبهم نزول آية تحقيق بهم يلتفت القرآن لفتته الحكيمة فيصور لهم دهشتهم في موقفهم الذي يطلبون ، ويخلص من ذلك الى الدليل الفطري الذي يؤثر ، الى الدليل الذي لايرتاب فيه إنسان ولا يغيب عن وجدان.

﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ؟﴾

هذه الجملة القصيرة ينقلهم الى الوقف المرعب ، وانها جملة تحضر في القلب الواعي كل ما للفرع والرعب من حدود. أتاكم عذاب الله. والإضافة وحدها تجهر بما لهذا العذاب المثل من نكال وبطش ، إنه العذاب الساحق الماحق ، ... إنه عذاب الله وكفى ... عذاب الله المقتدر المنتقم الذي لا يقاوم غضبه كما لاتحد رحمته. نعم ، وكفى ذعراً وكفى هؤلاء أن يكون الموقف مما تحتجب فيه رحمة الله ويضيق واسع حلمه ويوصد باب عفوه !!.

ولا يخفف من الرعب أنه فرض اقتضاء عرض الحديث ، ولا يهون من شدته أنه تقديم استدعته إقامة الدليل ، لأنه عذاب الله لا يأمنه مستطيل عليه بشر أو متمرّد على ربوبيته بحدود.

هاقد وقع الامر ، وحقت الكلمة. وأنزلت الآية. وتدلّ العذاب. هاقد وقع الأمر. واخذتكم الصيحة بغتة ، وانقطع رجاءكم من النجاة ، وانبتت آمالكم من الخير ، ويئت عقولكم من الحيلة وعجزت قواكم عن المكافحة.

هاقد حلّ ما تستعجلون ، وحق بكم ما كنتم به تستهزؤون. وإذا كنتم لاتزالون في فسحة فهبوا الأمر كذلك. هبوا العذاب قد حلّ فأدهشكم هوله ، واخذتكم غاشيته. أو هبوا قد أتتكم الساعة ، ألكم من الساعة مهرب ؟ هبوا أنها قد دنت وتفاقت خطوبها ووقعتم في مضائقها. أرايتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله أحداً تدعون لكشف هذه الشدائد وتفريج هذه الغم ؟.

ألستم في هذه المضائق تفرعون الى قوة قادرة قاهرة توقنون أنها تسيطر على هذا الملكوت وتهيمن على تدبيره وتنتهي إليها سلسلة اسبابه ؟ أليست الفطرة تفرع بكم خاشعين الى هذا الموجود الاعلى تجأرون اليه بالدعاء ، وتزولون به الرجاء ؟

ألستم تشعرون بسبب متين يشدكم الى اعلى اذا تقطعت بكم الاسباب ، وبسند قوي يثبت رجاءكم اذا انهارت منكم الآمال ؟ أليس هذا هو حكم الفطرة ساعة تستقل بالحكم ؟

والفطرة تستعلن أحكامها في أمثال هذه المآزق ^(١).

فلماذا ترشدكم الفطرة ثم تضلکم الفكرة ؟!

هذه القوة العظمى التي تؤمن بها الفطرة وتوجه إليها الغريزة حتى عند أبعد الناس عن الحضارة ، وأقربهم الى حياة الغابة ، هذه القوة هي الاله الحق ، وتشريعه العادل لتدبير الانسان هو الدين الصواب ، والاعتراف به والانقياد لشريعته هو الايمان الصحيح ، وهذه الامور البديهية الناصعة هي ما يدعو اليه محمد ﷺ في دينه ، فهل في صدقه ريب لمرتاب ؟.

ولأمر ما أودعت هذه الركييزة في أعماق الانسان. انها اودعت فيه

١ — وقد ورد في الاثر الشريف ان رجلا قال للامام الصادق عليه السلام يا ابن رسول الله ﷺ دلني على الله فقد أكثر على المجادلون وحيروني ، فقال له يا عبد الله هل ركبت سفينة قط ؟ قال نعم. قال فهل كسرت بك حيث لاسفينة تنجيك ولاسباحة تغنيك ؟ قال نعم. قال فهل تعلق قلبك هنالك ان شيئا من الأشياء قادر على ان يخلصك من ورطتك ؟ قال نعم. قال عليه السلام فذلك الشيء هو الله القادر على الانحاء حيث لا منحي وعلى الاغاثة حيث لا مغيث.

(الباب الرابع من كتاب معاني الاخبار للشيخ الصدوق القمي ره).

لتحفزه على التوجه الى الله ولتدفع به الى التفكير فيه ، فما يكون له بعد أن يغفل وما يكون له ان يغضي ، وما يكون له أن يعتذر ، وكيف يغفل وكيف يغضي ومبدأ الفكرة (الالهية) مطوي بين جوانحه ، ودليلها القوي البسيط مطبوع في قرارة نفسه ، ولولا هذا الباعث الذاتي الى التوجه والطلب لأمكن له الغفلة ولصح منه العذر ، ولكنها حكمة الخلق تمهد لحكمة الدين.

هكذا يستبطن الإسلام خفي الغرائز وكامن الترععات ليفهم الانسان كيف يستخلص عقيدته من صريح الفطرة ، ثم يبني عمله على خالص العقيدة.

مالي ولهذا النوع من الحديث يستدرجني إليه من حيث لأدري ، ويصرف قلبي نحوه من حيث لأعلم ؟ وقد أوعدت القاريء العزيز أن لا أتبسط. فلأعد الى نواحي الإسلام الاخرى ، أما هذا البحث فأرجو ان يكون موضوعاً لحديث خاص عن (التوحيد في القرآن) اقدمه للقراء اذا أمدني الله سبحانه بالمعونة والتوفيق.

الدين هو المنهاج السوي لتكامل الانسان في رشده.

هذا ما فصلناه من قبل ، واسلفنا شيئاً من أدلته.

واذن فالدين نظام اختياري لا سبيل للجبر فيه ولا مساغ للاضطرار ، لان تكامل الانسان في رشده اختياري لا سبيل للجبر فيه ولا مساغ للاضطرار. واذن فالسبيل لإثبات أي دين انما هو الاقتناع الكامل بصحة ذلك الدين ، ووسائله هي بذاته وسائل الاقتناع التي يعرفها العقل ويعول عليها في الاستنتاج.

البيان المشرق الذي لاغموض في أساليبه ، والبرهان الناصع الذي لاالتواء في منطقته ، والحكمة الرفيعة التي لاضعف في مراميها ، هذه أدوات العقل متى حاول أن يقنع أو يقتنع ، وهي بذاتها وسائل الدين في التدليل على صدقه أو على صحة عقائده ، لانه انما يتحدث الى العقل ، والإسلام دين الفطرة القويمة السليمة أحفل الأديان بهذه الحقائق واكثرها إشادة بها ، وأشدّها اعتماداً عليها.

يحاول الإسلام ان يبلغ الى كل نفس نفس فيملؤها عقيدة ، وأن يتصل بكل عقل عقل فيفعمه يقيناً ، وأن ينفذ الى كل قلب قلب فيغمره إيماناً. وكيف يتسنى له أن يدرك هذه الغاية ما لم ليصل الى النفوس بجمال البيان ، والى العقول بنصاعة الحجة ، والى القلوب بوفرة الحكمة ؟.

ويحاول الإسلام أن يوحى الى النفس بكرامتها وهو يلقيها العقيدة ، وأن يثبت للعقل حريته وهو يرشده الى الحجة ، وأن يشعر المرء بسمو منزلته وهو يقبسه الايمان. يريد ليفهم الانسان أنه موفور الكرامة عزيز المكانة حزّ التفكير ، فهذه هي الصفات التي يؤمل بصاحبها بلوغ الغاية ، ويريد ليوحى اليه بذلك ايماءً فان الايماء بالصفة أبعث الى اقتنائها ، وأدعى الى الاستمسك بها والحرص عليها.

الانسان موفور الكرامة عزيز المكانة ، ومن وفور كرامته وعزة مكانته ان يومي اليه بذلك ايماءً ويوحى اليه ايماءً اذا اريد إفهامه ذلك.

ويريد الإسلام اخيراً أن يغرس العقيدة في نفس الانسان عوداً عوداً ، وأن يعلل عقله من اليقين بما هلهة هلهة ، وأن يثبت الايمان بما في قلبه ركزة ركزة ، فقد علم مشرع الإسلام أن التمكن في الغرس أرسى للأصل وانما

موازنين ونتائج موازين ١٦٩
للفرع واجدى للثمرة.

هذه بعض مطامح الإسلام حينما يخاطب الانسان ، وهل يتحقق شيء منها بغير البيان المشرق والحجة القاطعة والحكمة الرفيعة ؟.

هذه سبيل الإسلام في دعوته ، وهذا نهجه الذي يتبعه الى غاياته ، وقد امر الله رسوله ان يجهر بها ويدأب فيها ويكده من اجلها :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ ^(١).

وهي كذلك سبيل من تقدم من الرسل المطهرين قبله

﴿ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ ^(٢).

أما الآيات الخارقة لنواميس الكون فلا تعدو أن تكون حاجات مؤقتة قد يحدو اليها ضعف في عقول البشر عن الانتفاع بالبرهان ، وقصور في مداركهم عن استجلاء الحكمة ، ومن أجل ذلك كان أكثر وقوعها في الاديان الأولى وعلى أيدي الانبياء السابقين ، أيام كان المجتمع البشري في أول السلم وكان إدراكه العقلي في دور الطفولة. فهي اذن آيات تتضمن علاجاً وتدليل يحتوي على تربية.

وخاصة هذا الضرب من الادلة انه يأخذ النفوس بالإيمان أخذاً وينتزع التصديق منها انتزاعاً قبل أن ينتشر به العقل بالمنطق السليم ، وقبل أن تذوقه الانسانية بالبيان المركز ، فهو من أجل هذه الخاصة احتجاج يشبه القسر.

١ — يوسف ، الآية ١٠٨ .

٢ — النحل ، الآية ٣٥ .

ودفقة الايمان السريعة على القلب كهجمة النور القوية على البصر لابد من ارتباك النفس أمامها قليلا إذا كانت النفس قوية ، ولا بد من انخذاها اذا كانت ضعيفة.

وتفاديا عن عروض أمثال هذه الشوائب في هذه الادلة ، وتزيهاً لحكمة الله سبحانه في الاستعانة بها والاستناد اليها ، وتقديساً لدين الله من أن يتطرق اليه وهن أو يظن فيه جبر ، تترهاً عن هذه الظنن التي قد يتعلق بها المتعلقون أو كل الله المقدمة الاخيرة من هذه الادلة الى العقل ... الى العقل وحده ، فهو المرجع الوحيد فيها وهو الحكم المصدق.

ذلك أن الآيات الخارقة لنواميس الكون انما تدلّ — بحسب دلالتها الأولى — على قدرة الله وعظيم صنعته ، واما صدق الرسول وثبوت الرسالة فانما تدل عليهما بدلالة ثانية ، وبضمنية مقدمة مطوية يستنبطها العقل الواعي ويحكم بثبوتها ويعول في الحكم عليها.

إن الخارق من صنع الله وحده يجيب به الرسول ويصدق دعواه ومحال على الله القادر الحكيم العليم أن يصدق كذباً وان يرشد الى ضلال.

هكذا يتدخل العقل في امر المعجزات ، وهكذا يحكم بصدق النبوة استناداً اليها ، فهو اذن برهان عقلي تكون المعجزة إحدى مقدماته.

وهذا الضرب من الآيات لا يقوى بذاته أن يبلغ الايمان الى القصي الذي لم يشهد ، وإلى الآتي الذي لم يولد ، لا يستطيع أن يبلغ الايمان الى أحد من هؤلاء ما لم يبلغ به السماع درجة اليقين.

من أجل هذا كله كانت الادلة الخارقة لنواميس الكون علاجات تحدد بحدود العلة ، وحاجات تقدر بقدر الضرورة. ومن أجل هذا كله وجب أن

يكون صدورهما مسبوقاً بالبلاغ الكافي من الرسول وبالطلب الملح من الأمة ، فهي إذن عاضدة للبرهان ومجلية للحكمة ، وموجهة للفكر القاصر الى تفهمها وتركيز الايمان المحدي عليهما.

نعم. ومن أجل هذا كله كانت الأدلة الكبرى التي يستند اليها دين الإسلام معجزة المعجزات وخارقة الخوارق ..

ليس في تدليل الإسلام على ذاته خرق لناموس من نواميس الكون ، ولا تغيير لمجرى من مجاري الطبيعة. ولكن فيه بروزاً لعظمة الله في آيات كتابه ، وسطوعاً لنور الله على بينات دينه ، وتحلياً لحكمة الله في تعاليم رسوله.

نعم. ليس في تدليل الإسلام على ذاته خرق لناموس من نواميس الكون ، ولكنه أخذ بيد المرء بما لا يجهل من معجز القول الى مالا ينكر من سمو المعنى.

هذا هو سر السر في إعجاز القرآن وفي آيات الإسلام الاخرى.

أما تفصيل هذا الجمل فله البحث الآتي.

قد يرتاب العلم الحديث بالخوارق فيشك فيها ثم ينكر ، وقد يتردد بعض العقلاء في وجه الاعجاز بما فيمتري ثم يجحد. إلا ان هذه الريبة وهذا التردد لا يتسربان الى معجزات الاسلام ولا يسري أثرهما اليها بوجه.

قد يرتاب العلم المادي بالخوارق لأنه يريد أن يخضع كل شيء لمختبر الكيموي أو لمبضع الجراح أو لمرقب الراصد ، فاذا استعصت الخوارق على محاولاته شك في صحتها ثم جحد ، وقد يتردد عاقل فيها لأنه يطمع أن

يكتشف كل مبهم وأن يستبين كل سرّ فاذا استغلق على فهمه سرّ الاعجاز
تردد في أمره ثم انكر.

إلّا العلم بين أشياء هذا الكون نوعاً من الترابط ، وكشف ضروباً من
القوانين ، وشاهد وجرب واستقرأ وضبط ، فدلت مشاهداته ودلت تجاربه
ودلّ استقراؤه وضبطه على أن الترابط محتوم وأن القوانين معلومة ، فلا يجيء
المسبب المعين إلا من سببه المادي المعين والا من قانونه الطبيعي المعين.
السبب الذي شاهده العلم والقانون الذي عرفه وجربّه.

ومضى في طريقه يفيد من هذا الترابط ويفيد من هذه القوانين ، ويدأب
ويكدح ليكتشف جديداً أو ليستوضح بعيداً ، وما يكتشفه وما يستوضحه
يرتبط بتلك الصلات أيضاً ، ويدين لتلك النظم.

فمن الصعب عليه جداً أن يرى — ولو نادراً — شيئاً يشذ عن ذلك فلا
يخضع للروابط ولا ينقاد للقوانين ، ومن أجل ذلك ارتاب في شأن الخوارق
وأنكر ، وتعبير أدنى إلى الصدق اقم بالريبة والانكار.

وموقف العالم هنا يجب أن يكون موقف الناظر المعتير مادام الأمر
خارجاً عن حدوده ، وخارجاً عن القوانين العامة المألوفة لديه ، والذي
عليه أن يتثبت من صحة ماوقع ، ثم عليه أن يفيد من هذا الاستثناء إذا كان
الواقع صحيحاً.

وما هو موضع الغرابة في وقوع المعجزة مادام كل حادث لن يحدث إلا
بسبب وإلا بقدرة وإلا بحكمة ؟ وما هو موضع الغرابة فيه مادام كل حادث
لابد أن يستند إلى الله وإلى قدرته وإلى حكمته ؟ والقوانين الكونية التي
كتشفها العلم وأفاد منها قوانين وضعها الله لتدبير الكون وربطه بأسبابه ، وما

موازن ونتائج ١٧٣
وضعها سبحانه لأنه لا يستطيع سواها .. وما وضعها لتحدد بها قدرته
وحكمته.

وما دام الامر امر حكمة وتدير فلنقدر ان مورداً قامت فيه حكمة
خاصة تقتضي فيه ما يخالف الحكمة العامة ، أيستحيل أن تتعارض الحكم في
الاقتضاء ؟. ولنقدر كذلك أن الحكمة الخاصة التي يحتوي عليها الشيء أشد
أهمية من الحكمة العامة وأجدر بالمراعاة فما يصنع الفاعل القادر الحكيم ؟.
أفيضحي بهذه الجهات الخاصة استمساكاً بالقانون العام ؟!

وابن آدم مخلوق محدود النظرة ، وهو يريد أن يحدد قدرة الله في فعله اذا
هو لم يدرك وجهاً لذلك الفعل. وقد مضى العلم يثبت له انه بذاته يستطيع ان
يفعل الخوارق بعد أن وضع يديه مفاتيحها ، ثم هو لم يفتأ بعد ينكر
ويستنكر على الله أن يأتي بالخوارق. لأنه هو لم يجد مفاتيحها !!.

اقول قد يرتاب العالم الذي لا يذعن إلا للتجربة والعقل الذي لا يؤمن
بسوى المحسوس ، قد يرتاب هذان في أمر الخوارق ، وقد يتأذى الشك بهما
الى الانكار ، إلا ان هذه الرؤية لا تتسرب ابداً الى معجزات الإسلام.

المعجزات التي يعتمد عليها دين الإسلام لاثبات صدقه محسوسة
مسموعة لكل حس ولكل سمع فلا يرتاب فيها علم. وهي لاتنقض ناموساً
من نواميس الكون ولا تعيّر مجرى مجاري الطبيعة فلا يمتري فيه عقل ،
وهي عامة شاكلة لكل عصر ولكل جيل فلا يتردد في حكمته عاقل.

معجزات الإسلام لاتفجأ الانسان من قبل حرق النواميس الكونية فهي
ليست في الطرف الأدنى من حدود الاعجاز ، بل تأتيه من جهة الكمال في
هذه النواميس فهي في الطرف الاسمى من تلك الحدود.

لا أوقف قارئى طويلاً ثم لا أحيله بعيداً. فهذا القرآن معجزة الإسلام الأولى لنضعه بين أيدينا ثم لننظر أي ناموس من نواميس الكون نقض وأي مجرى من مجاري الطبيعة غير ؟.

لم يحبي القرآن ميتاً ، ولم يحول لهب النار برداً ، نعم ولم يرسل طوفاناً من ماء ولا فجرّ ينوعاً من حجارة صماء. لم يصنع القرآن شيئاً من هذا القليل ولكنه جاء بالبلاغة ، والبلاغة كمال يطمح اليه الانسان ، ويتباهى بالتحليق اليه كل عربي وكل قرشي على الخصوص ، والعرب وقريش أئمة البيان ولا منازع ، وأمراء البلاغة ولا نكير.

هذا الشيء المحسوس المرغوب أتى به كتاب الإسلام ، ثم تحدى الفرد وتحدى الامة ، وتحدى الجيل والأجيال والجن والانس ، تحدى هؤلاء جميعاً ان يأتوا بسورة من مثله ... بلى بسورة واحدة من أقصر سوره لا بأكثر !!.

وظن الانسان من نفسه القدرة بادیء بدء فأتار التحدي لأن يساجل ، وحفزه الطموح لأن يقارع ، ثم مد بصره نحو القمة فأخذ الدوار ، ونقل قدمه الى الغاية فملكه الرعب ، وحرك لسانه للقول فعقده العي.

فتراجع مبهوراً ... ثم اعترف مقهوراً ! ..

ومعجزات الإسلام لا تجمع الايمان جمعاً ثم تدفقه في القلوب دفقاً كالسيل يزلزل الثوابت ان تقيسه ، وكالبرق يخطف بالابصار أن تحده ويكد النفوس أن تحققه. بل تعلن تبشير الايمان للقلوب كما يعلن السحر تبشير الفجر للكون المظلم ، ثم تبعته كما ينبعث الفجر ضعيفاً على قوته خفياً على ظهوره.

ثم يترفع النور قليلاً قليلاً ، ويسفر الصبح رويداً رويداً ، ويشع الافق ،

وتشرق الشمس ، ويرتفع الضحى حتى لا يشك بصر ولا تجحد بصيرة !!
بينات الإسلام معجزات قوية قوية تقطع العذر وتكشف السرّ ، وبراهين قاطعة قاطعة تنير السبيل وتقيم الحجة ، ففيها تبسط البرهان وعليها جلال الاعجاز !!.

هي تسير مع البرهنة في التقديم والترتيب ، وتتمشى مع الفكر الى النتيجة ، وهي تستنطق الفطرة عما خبأت وتستفتي العقول عما أدركت وتحاكم الانسان فيما اعتقد وفيما أخذ ونبد ، وكل ذلك في طريق سافر وبمنطق وثيق ، ثم هي في جميع هذا تبهر الانسان بجمال الصوغ وتقهر بقوة الاسلوب وتمتلكه بعظمة المعنى وتقطعه عن المحاراة في كل هذه الأشواط. وقد قدمنا نماذج من هذه الحجج التي يلتقي فيها صفاء الفطرة بوثاقة البرهان وإعجاز القرآن. على ان التحدي ذاته تحكيم للعقل في شأن الاعجاز واثبات له من طريق البرهان.

ومعجزات الإسلام عامة خالدة.

عامة كعموم الإسلام خالدة كخلوده ، فباستطاعة كل جيل أن يراها. وبمقدور كل فرد أن يتبينها ، وبإمكان كل ناقد أن يلو دعوى الصدق فيها.

ذلك كله سرّ التفوق والعظمة في معجزات الإسلام اقول هذا ولا انقص معجزات النبيين المطهرين كرامتها. ولا أبجسها قيمتها ، ومعاذ الله ان أهداف الى ذلك أو يفهمه أحد من حديثي أو يحاول أن يفسره به ، ولكنني أقول : الفارق بين المعجزة العظمى واخواتها من الصغار المعجزات هو الفارق بين الرسالة العظمى واخواتها من صغار الرسالات.

معجزة كريمة أن يقف رسول على ميت في الاموات فيقيم به بأمر الله حياً

من الاحياء.

ومعجزة كريمة أن يمرّ نبي يده على بائس قد كربتته العلة وأقعدته الزمانة فيرده بإذن الله صحيحاً في الأصحاء سويّاً في الأسوياء.

ومعجزة كريمة أن يضرب بعصاه الحجر القاسي فيفجره عيوناً. وأن يفلق بها البحر الطامي فيقسمه أفراقاً. كل أولئك معجزات كريمة تبدي للمرء من قصور عبدة ، وتقيم عليه من قدرة خالقه حجة.

ولكن معجزة المعجزات ان يؤتى الانسان من حيث يزعم لنفسه القدرة ، وأن يمتحن من حيث يدعي لذاته الكمال ، حتى إذا عجز عن المجازاة كان عجزه أوفى في الدلالة على القدرة الفائقة ، وإذا قصر كان قصوره أجلى في الابانة للكمال المطلق.

والمعجزة آية قريبة المدلول رصينة الدلالة ، ولذلك فهي تقطع المعاذير من أول وهلة وتثبت الدعوة من أقرب طريق ، وموضع العجب منها انها تنهض الدلالة على مبدأ محسوس وتركز الدعوة على قاعدة ملموسة.

ولكن اعجوبة الاعاجيب ان تكون هذه الآلية بمبادئها المحسوسة وبدلالاتها القوية المتينة عامة يستضيء بنورها كل انسان. وثابتة ينتفع بهاها كل جيل. وعظمة العظومات ان تكون الى ذلك بأجمعه معجزة باهرة تغمر النفس ، وبرهاناً ساطعاً ينير العقل وحكمة بالغة تغذي الفكر.

وميزة اخرى تختص بها بينات الإسلام انها تتصل بالدعوة اتصال الجزء ب كله ، أو الجسد بروحه. ففي الصميم من دعوة الإسلام تقع معجزاته ، ومن لباب هداياته تكون بيناته وهذا مما يتسامى به الإسلام على كل دين.

لابد لكل دين من البيان ، وبيان الإسلام معجزته الاولى.

ولابد لكل دين من البرهان ، وبرهان الإسلام معجزته الثانية.

ولابد في تشريع كل دين من الحكمة ، وحكمة الإسلام معجزاته الثالثة.

وكل واحدة من هذه المعجزات ثابتة مع الازمان للنقد. خالدة مع

الأجيال للهداية !!.

فلسان الإسلام هو الذي تحدى كل ناطق فأبكمه ، وقارع كل بليغ

فأفحمه ، ثم لم يفتأ يقارع ويتحدى ليفهم الانسان أن قصوره لن يزال هو

قصوره الأول وأن عظمة القرآن لن تبرح هي عظمتها الاولى !!.

وبرهان الإسلام هو الذي استفهم كل صورة من صور الكون واستنتطق

كل مجلى من مجالي الطبيعة ، واستشهد كل سرّ من أسرار الحياة ، فأبان

للناس كافة — على اختلاف عقولهم واختلاف علومهم — أن دلائل هذا

الدين ملء الكون وملء الطبيعة وملء الحياة !!.

وحكمة الإسلام هي التي ثبتت للتمحيص في كل دور وأحرزت السبق

في كل رهان ، ثم لم يفتأ العلم يستكشف كل يوم منها جانباً خفياً

ويستشرف الى جوانب أخرى لاتزال مستورة !! وسرّ ذلك ان الإسلام دين

الانسانية جمعاء ، وحقيق على دين الإنسانية أن تكون دلائله ومبثوثة في كل

وجه ، منتشرة في كل صوب ، بحيث يجدها كل طالب ويستجليها كل ناظر.

والناس مختلفون في درجات افهامهم ، متفاوتون في مراتب عقولهم

ولكل صنف من الناس حظه من الادراك وطريقته في الاقتناع ، ومن

مدهشات هذا الدين انه اعد لكل صنف ما يقنعه ، ولكل فهم ما يسيغه !!.

﴿وَكَانَ مِنْ آيَةِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا

مُعْرِضُونَ ﴿١﴾ .

أصحح أن الناس يطلبون دليلاً واضح الدلالة يؤيد الإسلام في دعوته
ويصدق رسول الإسلام في دعواه ؟.

أصحح أنهم يرومون التثبيت في الدين قبل الاعتقاد والتأكد من الهدف
قبل الاندفاع ؟.

أصحح أن خشية الكذب تدفعهم الى طلب الدليل ، وان خيفة الزلل
تحملهم على ترسيخ القدم ؟.

حق أن يتثبت الانسان من دينه قبل أن يعتقد ، وحق كذلك ان يتثبت
فيه بعد أن يعتقد ، وعادل أن يطلب الانسان ذلك ويجهد فيه ويتأكد منه ،
ودين الإسلام في طليعة المشجعين له على ذلك ، بل وأول الناقمين عليه إذا
هو لم يطلب ولم يجهد ولم يتأكد.

وإن المسألة مسألة فوز وخسران وسعادة وشقاء وهدى وضلال وخطر
المنساق فيها على غير علم لا يقل عن خطر المنحرف مع العناد أو الهاوي مع
الاحاد حق لهم أن يصنعوا كذلك وأن يطلبوا ويتأكدوا ، ولكن.
ما بالهم يحاولون أن يلجوا البيت من ظهره وأن يبلغوا الشيء من أبعد
سبله ؟!.

يطلبون على صدق محمد ﷺ في رسالته بينة تنقض النواميس وتغير
المجاري ، وأية مزية يمتاز بها هذا الضرب من البينات على غيره ليقترحوه
على الإسلام وعلى نبي الإسلام ؟.

لعلهم يظنون أن الرسول يظهر الآيات بقدرته ومن تلقاء نفسه فهم يقترحونها عليه ليستبينوا صدقه ويمتحنوا طاقته.

ان كان هذا ظنهم فهو وهم خاطيء ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١)
﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ
بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾^(٢).

أية مزية يختص بها هذا الضرب عما سواه من الادلة ليقترحوه على
الرسول ؟.

ميزته الاولى انه يدل على قدرة الخالق بعجز المخلوق ، وعلى كمال الرب
بنقص المربوب ، وكل ظاهرة وخافية في هذا الكون الرحيب تشاركه في هذه
الدلالة.

وبعد أن تقدم العلم المادي واتسعت آفاقه ، وظن الانسان من نفسه
القدرة على كثير من الامور ، وتوفرت بيديه آلات التحليل والتركيب
وأحصى عناصر المركبات ، وضبط مقاديرها ، أتراه يستطيع ان يؤلف من
هذه العناصر المتفرقة مركباً يسعد بالحياة .. ولو بحياة النبات .. بهذه الحياة
التي تنتمي وتثمر ، وتحفظ نوعها وتستبدل فرعها ؟.

لقد جرب الانسان وجرب العلم فاستبان انه عاجز عن ذلك وسيتبين له
أنه عاجز كلما جرب وكلما حاول.
وصدق الله العظيم حيث يقول :

١ — الأنعام ، الآية ٩ .

٢ — المؤمن ، الآية ٧٨ .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ ^(١).

والميزة الاخيرة لذلك النوع من الادلة انه يصدق رسالة الرسول من حيث اعتضادها بالقوة الخالقة ، وكل ظاهرة وخافية من هذا الكون تصدق رسول الإسلام من حيث انها تركردعوته وتثبت تعاليمه ..

بلى. الميزة الفريدة لتلك الأدلة انها حوارق. أنها جديدة في طريقة تكوينها ... أن الانسان لم يألفها فتبعد به الالفه عن الالتفات اليها والتفكير فيها والاعجاب بها ، وهي ميزة لها شأنها عند الرجل (البدائي) ومن يقرب منه في الطفولة العقلية.

أما الانسان الراقي الذي يكبر فكره على العادة وتعتلي نفسه عن الالفه فانه لا يابه لهذه الفوارق ، فكل نظرة له في آيات الكون تفيده اعتباراً جديداً.

والانسان محتاج الى مايمده بالايامن في كل لحظة وفي كل نظرة ، لترقى نفسه ويعتلي ايمانه ، وآيات الكون هي التي تكفل له بذلك ، ونظراته اليقظة الواعية هي التي تفي له بهذا الضمان.

لينظر المرء فيما حوله مما يسمع وما يبصر ، وليتأمل في كل ما يحيط به مما يحس وما يعقل ، في الكون الأعلى وحركاته ومداراته ، وفي الكون الادنى ومجاريه وغاياته ، في الشمس البعيدة البعيدة التي لا تُكشَفُ إلا بالمرصد ،

وفي المنظمات الصغيرة الصغيرة التي لاتبين إلا بالجاهر ، لينظر في ذلك بعين المتدبر المتطلع الذي لم تصرفه الالفه عن استجلاء الروائع ولم تفقده لفتة الاعتبار وهزة الاستغراب ، لينظر في هذا الملكوت الفسيح المديد كمن يدخله أول مرة ويرسل فيه أول نظرة ، فهل يلقي إلا معجزة ؟ وهل يشهد إلا آية ؟ معجزة تعي دونها القدرة المحدودة ، وآية يدهش لها العقل الحصيف ..

ثم لينظر في كل واحدة من هذه الاعاجيب ألا يجدها دليلاً صريحاً على قدرة جبارة ، وعلى علم محيط ، وعلى حكمة بالغة ، وعلى كمال مطلق ، ثم على وحدة لا يندسها شرك ، وغنى لا تشوبه فاقة ، وقوة لا ينالها ضعف ؟.

وهذه بذاتها هي ركائز الإسلام الاولى وتلك هي براهينه على ثبوته منتشرة كانتشار النور في كل وجهة ، واضحة كوضوح اليقين في كل قلب فهل يطمع طامع في تعاليم اسمى من هذه التعاليم ؟ وهل يرقب أحد حججاً اسطع من هذه الحجج ؟ وهل للريب ظل حول دين تلك أصوله وتلك آياته ، وفي رسول هذه دعواه وهذه بيناته ؟

ولكن القلوب الغلف .. ولكن النفوس المدخولة لا يطيب لها ان تؤمر ، ولا يطيب لها أن تفكر ، ولا يطيب لها أن تنتفع بتفكيرها لو فكرت. ذلك هو العرض الدائم لمسح الضمائر واطلام البصائر.

إن هذا القطيع من المخلوقات يستمرىء الجهل ويستلذ العمه ، فان عطف عليه عاطف ليدله على رشد أو ليستنقذه من هلكة صخب واجلب كمن يقاد الى نحر

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا

١٨٢ الإسلام
 بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا
 إِذَا مُنْظَرِينَ * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
 مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ
 يَسْتَهْزِئُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ
 خَلَتْ سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١﴾.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ * لَقَالُوا إِنَّمَا
 سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ..

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ
 كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ *
 وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
 مَّوْرُودٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ * وَإِنْ مِنْ
 شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ
 لَوَاحِقَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿١﴾.

دين الإسلام في غنى عن الاستدلال بالخوارق ، فمنشآت الكون بأجمعها
 آيات تشهد لدعوته بالصدق ودلائل تثبت لشريعته الحكمة.

على أن البيئات الكونية بادية لاحتجاب عن أحد ، باقية لاتنتهي في
 زمان ، عامة لاتخص بمكان ، فاذا شهدت لدين بالصدق كانت شهادتها
 أجدى من معجزة منقطعة المدى لا يشهدها إلا يسير من الناس ، ثم لا يؤمن
 بها إلا التز من هذا اليسير.

دين محمد ﷺ في غنى عن الاستدلال بالخوارق فأياته منتشرة في كل صوب مستعلنة لكل طالب ، ذلك أن الله الذي فرض على البشرية بجمعها أن تتبع هدى محمد ﷺ حتم على كل شيء في هذا الكون أن يدل على صدق محمد صلى الله عليه وآله.

وذلك أن الكمال الأكبر الذي يؤمه محمد ﷺ في دينه ويوجهه البشر نحوه في تعليمه هو مطمح كل شيء ظاهر في الوجود ، وقبله كل سرّ مستودع فيه.

وذلك هو سرّ الوحدة الكونية الجامعة التي نهج إليها محمد ﷺ لما بدأ دعوة الإسلام ، وعناها ربّ محمد لما رفع قواعد الإسلام.

وبعد فإن الاستيعاب هنا مما لا يسمعه وضع كتاب ولا يبلغه جهد كاتب ، وحسي عن التفصيل هذه الإشارة العابرة ، وحسب الإسلام أن كل ضرورة تدعو إلى الدين لن تجد سداداً بغيره ، وأن أي سمة تذكر للدين الحق لن تجد مصداقاً لها في سواه ، حسب الإسلام أن ينهض بذاته دليلاً على ذاته. رأيت الدعوى تقوم على نفسها دليلاً قاطعاً لا يدحض ولا يستطاع ؟ غريب أن يقع هذا في النظريات المحض ، وأشد غرابة منه أن يقع في مقررات الأديان.

ان دين محمد ﷺ وحده هو الذي يستطيع ذلك.

دين محمد ﷺ وحده هو الذي يقرر أصوله ويوضح غايته ويبين مناهجه وإرشاده فتكون له من رسوخ هذه الأصول وجلال هذه الغاية وخطر هذه المناهج وروعة هذا الارشاد آيات بينات على صدقة لا يشك فيها عقل ولا يتمارى بها عاقل !! . وكتاب محمد ﷺ وحده هو الذي يدعو

١٨٤ الإسلام
الناس بسورة منه فيبلغهم جميعاً ، ويتحدى الناس على الإتيان بمثل هذه
السورة فيعجزهم جميعاً !!.

رسوخ الأصول من هذا الدين وارتباطها مع دعوة كل ناموس من
نواميس الكون ومع هداية كل سرٍّ من أسرار الطبيعة ، وارتكازها على
حكم الفطرة الذي لا ينقض وعلى منطق البرهان الذي لا يدحض. وسمو
الغاية فيه واتساقها مع الغرض الأول من خلق الانسان ، ومع المقصد
الاعلى من إيجاد الحياة ، ومع الغاية العامة التي يستقبلها كل جزئي من
جزئيات هذا الوجود ، ويهدف إليه كل نظام من أنظمتها. ودقة المناهج التي
شرعها للانسان لتبلغ به المدى ، المناهج التي استخلصها من صميم مركز
الانسان في الحياة ومن مختلف منازع الحياة في الانسان ومن الملاحظات
العميقة لطباع هذا الكائن والموازنات الدقيقة بين نزعاته. ثم روعة هذا
الإرشاد وهذا مالا يفي بوصفه قلم كاتب ، ولا تملك أن تصوره ريشة مبدع.
هذه كلها وعلى رأسها كتاب الله الذي أحرس كل ناطق بينات محمد ﷺ
على صحة دينه وعلى صدق دعواه ، فهل يتسرب إليها أو الى بعضها ظل من
الريب؟؟.

أما هذه المقارنات الطويلة التي يفيض فيها كتاب الإسلام المعاصرون ،
مقارنة الإسلام بما سواه من الملل ، ومقايسة القرآن بما عداه من الكتب ، فهي
نمط من التدليل قد يؤثره الداعية المسلم ليستظهر به على خصيم من اشيع
تلك الملل ، أو ليرد به شبهة من أتباع تلك الكتب ، وقد يركن اليه ليدل على
عظمة صفة الإسلام أو في القرآن بحقارة ضدها ، وعلى جمال معنى فيهما بقبح

أما وراء هذا وذاك فهو لون باهت من الجدل ، لون باهت حائل ليس له
نصوع الحجة ولا رسوخ البرهان.

وما يفيد الإسلام أن يسلم من عيوب تأصلت في بعض الأديان ؟ وما
يجدي القرآن أن يتره عن نقائص توطنت في بعض الكتب ؟ أفيثت لمجرد
سلامتها من تلك العلل أن الإسلام هو دين السماء الحق ، وأن القرآن هو
كتاب الوحي الصحيح ؟

لست أظن أحداً من الناس يتوهم ذلك.

سلامة الإسلام والقرآن من هذه العلل لا تعدو أن تكون علامات
سلبية ، وأدائها إلى النتيجة المقصودة يستدعي من الكاتب أن يظهر براءة
الإسلام من شتى العلل لا من عيوب هذه الأديان فقط ، ويثبت نزاهة القرآن
عن عامة النقائص لا عن نقائص هذه الكتب فحسب.

والكتاب المحدثون يهدفون من هذه الخطة إلى ناحية توجيهية خالصة ،
هي إلى الدفاع أقرب منها إلى التدليل ، وهي (بالدعاية) أشبه منها باقامة
الحجة.

أخذ المفكرون من الغرب على المسيحية خللاً في المعارف ينكره العقل ،
والتيثاً في التشريع تجحده الطبيعة ، وإسفافاً في التوجيه تأباه الضرورة.
فكان من المنتظر أن تنهزم المسيحية بل تنهار أمام هذا الثالوث ، فان العقل
والطبيعة والضرورة خصوم عنيدة شديدة لا يقام لها بسبيل.

وتبنت الكنيسة أفكاراً رائجة عند العامة عن الكون والفلك والأرض
والطبيعة واعتبرتها أفكاراً مقدسة ، وأشاعت أنها من مقررات الوحي ،

ومن نظريات السماء ، فلا يمكن أن تكذب أبداً ولا يسوغ أن تخالف ، ولا يسوغ أن تناقش.

وجاء بعض العلماء الطبيعيين والفلكيين يقولون إن هذه الافكار معلولة ، وإن التجربة تثبت غير هذا ، وإن الآلة تشهد بصدق ماتقول التجربة.

وانتفضت الكنيسة لهذه الجرأة على مقررات الوحي ، وانتصبت لتأديب المعتدي على نظريات السماء ، وانتصب العلم وآلاته وأدواته ورجاله لعداء الكنيسة ، أُنْتَهَكَ حُرمة العلم ، وتنتهك الحرية الفكرية باسم وحي السماء والنظريات المقدسة !!

وانضم العلم وانضمت الحرية الفكرية الى المعسكر الذي يناصبها العداء ، وانصار العلم وأنصار العقل وأنصار الحرية الفكرية من الحتم أن يكثروا ، ومن الحتم أن ينتصروا ، وإذا كان العلم والعقل والحرية الفكرية في جانب ، فلا بد وأن يكون الجهل والحمق والعبودية الفكرية في الجانب الآخر لأن تلك لا تحارب نظائرها.

ورامت الكنيسة — وكانت نافذة السطوة — أن تتلافى الأمر قبل أن يستفحل ، فاتخذت من القوة اصلاً للخلل ومن العنف والفتك تقويماً للاضطراب ، فكانت محاكم التفتيش تقضي بالموت لأضعف هممة وبالأحراق والتفكيك لأوهى علة .. نعم وكان التأريخ المرعب الكالح الذي تفرزت منه الانسانية ، والذي أطل الدماء بلا حساب ، وأودى بمئات الألوف من المفكرين والأحرار دون مبرر !!.

ومن جراء هذا وهذا كانت ثورة الغرب الكبرى التي حطمت الكنيسة وألغت المسيحية ، واتهمت كل دين.

واستيقن الكتاب المسلمون أن حقوق البشرية تفرض عليهم النصيحة ، وأن أمانة الحق تقتضيهم الوفاء ، وإن عهد الله سبحانه يلزمهم بالتبليغ. فطفقوا يلوحون للسادرين بالأيدي ويؤمنون بالأكف ويرشدون بالألسنة ، ويوجهون بالاقلام الى النبع الصافي الذي لا يرنقه كدر ، والرواء الكافي الذي لا تعكره غصة ، الى العقيدة المتزنة التي توحى بها الفطرة ويعززها البرهان والتشريع الحق الذي تقرره الحكمة ويثبتته العدل. الى عقيدة الإسلام العليا وطريقته المثلى. وهذه المقارنات إحدى الصيغ التي يؤدّون بها هذا النصح ، ويوفون بها هذا العهد ، ويبلغون بها هذه الدعوة.

أما الامور التي انكرها العقل والضرورة والطبيعة من تلك الديانة ومن تلك الكتب. أما المآخذ التي حكمت على المسيحية بهذه العقبي وأفضت بها الى هذا الخسران ، وأما هذه الامور فهي كثيرة ، ويكفي للدلالة عليها :

(١) هذا الاسفاف الزري في تفسير معنى الألوهية ، وفي تصوير حقيقة الاله. فربّ (العهد القديم ^(١)) يجهد عمل ستة أيام ويأخذ منه الاعياء حتى يكاد يتهالك في اليوم السابع ليستريح ويختبيء عنه آدم وزوجته حواء بين شجر الجنة كيلا يراهما عاريين ، فلا يعلم بهما أين ذهبا ، ولا يدري لماذا اختفيا عنه ، ويجذر من آدم أن يأكل من شجرة الحياة كما أكل من شجرة المعرفة فيشاركه في الخلود كما شاركه في التمييز بين الحسن والقبيح ، فيطرده

١ — العهد القديم : الاسفار التي كتبت قبل المسيح — على ما يقولون — من مجموعة الكتاب المقدس.

والعهد الجديد : الأسفار التي كتبت بعد المسيح من هذا الكتاب.

وزوجته من الجنة ويقيم حرساً على الطريق الشجرة^(١).

ويكثر بنو آدم — بعد حادثة الطوفان — ويجمعون ليبينوا لهم مدينة
ويقيموا لهم برجاً فيخشى ربّ (العهد القديم) وحدة هذا الشعب ، ويحذر
قوتهم ويتزل إليهم ويبلبل ويبدد كلمتهم^(٢).

ويصطرع هو مع يعقوب بن اسحاق ليلة بطولها فلا يملك أن يظهر عليه ،
ويطلب الخلاص من قبضته فلا يقوى على ذلك ، ويخلع الربّ فخذ مصارعه
يعقوب بضربة قوية ليتخلص منه فلا يجديه ذلك نفعاً ، ثم لا يترك البطل
يعقوب ربّه حتى ينتزع البركة لنفسه منه انتزاعاً^(٣).

ويحاول أن يتزل ليضرب فرعون وقومه المصريين في ليلة الفصح ، ولكنه
يخشى أن تلتبس عليه بيوت بني إسرائيل حين يجتاز بين البيوت في تلك
الليلة ، فيأمرهم أن يطلخوا أبوابهم بدم الفصح ليعرف بذلك بيوتهم فلا
يعمهم بضربة الهلاك^(٤).

ويراه موسى وهارون ومن معهما من شيوخ إسرائيل. يرون الله وتحت
رجليه شبه صنعة من العقيق الازرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة ،
ولكنه لم يمد يده الى أشرف اسرائيل ، فأروا الله وأكلوا وشربوا^(٥).

ثم هو يحيى ويذهب ويأكل ويشرب ويماري ويكذب ويحزن ويأسف

١ — ٢ — ٣ من سفر التكوين.

٢ — ١١ : التكوين.

٣ — ٣٢ : التكوين.

٤ — ١٢ : الخروج.

٥ — ٢٤ : الخروج.

موازين ونتائج ١٨٩
ويخادع ويغش ويجهل ويتحير ويستشير جند السماء ويستعين بهم على
الاغواء^(١) و ...

وربّ (العهد الجديد) واحد في العقيدة ثلاثة في العدد ، ولاهوت في
الحقيقة ناسوت في الجسد. و (في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ،
وكان الكلمة الله ، هذا كان في البدء عند الله كل شيء به كان ، وبغيره لم يكن
شيء مما كان)^(٢) و (الله ظهر في الجسد)^(٣) و (استحسن الله أن يخلص
المؤمنين بجهالة الكرازة ، لأن جهالة الله أحكم من الناس)^(٤).

ثم هو يضعف ويتألم ويضحك ويكي ويقتاد في البرية أربعين يوماً
ليجرب من إبليس ويضطهد ويستغيث ويقهر ويغلب ويقويه الملك ويدعو
ويصلي ويصلب ويدفن ..

(٢) وهذا القرف الشائن لانبياء الله ورسله المطهرين وهذا النيل من
قدسهم ، فنوح يشرب الخمر ويسكر حتى يتعري وحتى يهزأ منه ولده
حام^(٥) وإبراهيم يدعي أن زوجته ساره أخته ، يدعي ذلك لجعلها حظية
لبعض المصريين وليناله خير بسببها^(٦).

١ — ٢٢ : الملوك الأول و ١٨ : الايام : الثاني ، اما الصفات المذكورة فيجدها
القاريء منتشرة في أسفار العهدين.

٢ — ١ : يوحنا ، ويعني بالكلمة المسيح : الاقنوم الثاني من أقانيم الذات الالهية.

٣ — ٣ : رسالة تيموثاوس الاولى.

٤ — ١ : كورنثوس الاولى ، والكرازة الوعظ بالحقائق المسيحية على ما يقول الاب
اليسوعي لويس معلوف في (المنجد).

٥ — ٩ : التكوين.

٦ — ١٢ : التكوين.

ولوط تسقيه ابتاه خمرًا وتضطجعان معه وهو سكران لا يعي فيزني بهما ^(١) وهارون يصنع العجل ليعبده بنو إسرائيل ويبني مذبحاً أمام العجل وينادي بهم (غداً حج للرب) يعني للعجل ^(٢) وموسى يسيء الآداب مع ربه ويشك في صدق مواعيده ^(٣) وموسى وهارون لم يؤمنا بالله ^(٤) وعصيا قوله ^(٥) وخاناه ^(٦) وداود يزني بزوجة أوريا الحثي ، وتحمل هذه من زناه بها ، ثم يكيد زوجها ويبتغي له الغوائل حتى يسبب له القتل في إحدى المعارك ويضم الزوجة اليه بعد أيام المناحة ^(٧) وسليمان يخالف تعاليم الشريعة وتميل به نساؤه وراء آلهة أخرى ويبني لتلك الآلهة مرتفعات ، ويعمل الشرّ في عيني الرب ^(٨).

أما المسيح فإنه يكذب ^(٩) وهو يشرب خمر ^(١٠).

وأما تلاميذ المسيح فليس لهم إيمان مثل حبة خردل ^(١١) وهم غلاظ

١ — ١٩ : التكوين.

٢ — ٣٢ : الخروج.

٣ — ١١ : العدد.

٤ — ٢٠ : العدد.

٥ — العدد.

٦ — ٣٢ : التثنية.

٧ — ١١ : صموئيل الثاني.

٨ — ١١ : الملوك الأول.

٩ — ٧ : يوحنا.

١٠ — ١١ — ٢٦ : متى ، وغير ذلك.

١١ — ١٧ : متى.

موازين ونتائج ١٩١

القلوب ^(١) وقد وبخهم المسيح بعد قيامته من الاموات على عدم أيمانهم وقساوة قلوبهم ^(٢).

(٣) وهذا التناقض البين في الأقوال فالله إله واحد لا إله سواه ^(٣) والآلهة متعددة ^(٤).

والله لم يره أحد قط ^(٥) وقد رآه موسى وهارون في جبل سينا ومن معهما من شيوخ إسرائيل ، وراه قبل ذلك يعقوب وجهاً لوجه وصارعه ليلة كاملة ، وظهر لابراهيم عند بلوطات ممر أو في أمكنة أخرى ^(٦) وراه قبل جميع هؤلاء آدم في الجنة وكانت له مع جميعهم شؤون.

وأحكام الرب حق عادلة كلها ^(٧) وهو يحب البرّ والعدل ^(٨) وهو يأخذ الأبناء بذنوب آبائهم ، ويأمر بني إسرائيل أن يحرموا (اي يبيدوا) مدن الحثيين والاموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين ولا يستبقوا منها نسمة من البشر والبهايم ^(٩).

وينظر يوحنا المعمدان يسوع مقبلاً فيقول : هو ذا حمل الله الذي يرفع

١ — ٦ : مرقس.

٢ — ١٦ : مرقس.

٣ — ٣٢ : التثنية وقد تكرر في مواضع.

٤ — المزمور ٨٢ — ١٠ : يوحنا.

٥ — ١ : يوحنا.

٦ — ١٨ : التكوين.

٧ — المزمور : ١٩.

٨ — المزمور : ٣٣.

٩ — ٢٠ : التثنية.

الخطيئة عن العالم ^(١) وتأتي يوحنا هذا وهو في السجن انباء المسيح بعد ظهور أمره فيرسل اليه يسأله أنت هو الآتي أن نتظر آخر ؟ ^(٢).

وشريعة الله التي أنزلها على موسى والانبياء خالدة لا ينقض منها شيء أبداً الى أن تزول السماء والارض ^(٣) وهي منقوضة منسوخة كلها إلا احكاما يسيرة منها ^(٤).

والرسل بعد المسيح يعلمون من آمن به من اليهود بحفظ الناموس واتباع تعاليمه ، ويعلمون من آمن بالمسيح من غير اليهود بأن لا يحفظ الناموس ولا يتبع تعاليمه ^(٥) وبولس الرسول يكون لليهود كيهودي وللذين تحت الناموس كأنه تحت الناموس وللذين بلا ناموس ، كأنه بلا ناموس يتلون هكذا مع الناس ليرمجهم جميعاً ^(٦).

وعقيدة الصلب والفداء والخطيئة الأصلية الموروثة ، خطيئة أينا الاول آدم لما أكل من الشجرة فأخرج بسببها من الجنة ، الخطيئة الكبرى التي لزم إثمها ذريته أجمعين واستوجب كل فرد منهم عليها العذاب المهيّن ، ثم الخلاص من ذلك لمن آمن منهم بالوهية المسيح وبأنه صلب ليكون فداءً للعالمين من هذه الجريمة !.

١ — ١ : يوحنا.

٢ — ٧ : لوقا ، ١١ متى.

٣ — ٥ : متى.

٤ — ١٥ : أعمال الرسل.

٥ — ١٥ : أعمال الرسل.

٦ — كورنثوس الاولى.

هذه العقيدة التي يقوم عليها أساس المسيحية ، والتي تلزم كل فرد من البشر ذنباً لم يجنه ، ثم تكفر عنه ذنبه بعقاب قد حل على غيره !. فيرتكب الخطيئة مرتكب ، ويدان بها آخرون ، وتحل العقوبة على ثالث غير العامل وغير المدانين ! ، وهذا الثالث الذي تنزل به العقوبة هو الاله ذاته أو هو ابن الاله يتجسد ويختار الصلب ليفتدي الخاطئين ! ويطالب الناس أن يؤمنوا بهذه المتناقضات ليتخلصوا من الذنب وتظللهم الرحمة ويسعهم العفو ، عفو الاله المصلوب عن ذنبهم غير المكسوب ^(١) !.

(٤) وهذه الانماط المضحكة من الأمثال ، فالله يأمر نبيه إشعياء أن يحل المسح عن حقويه ويمشي بين الجموع عارياً حافياً وهو يقول : هكذا يسوق ملك آشور سبي مصر ... عراة حفاة ومكشوفي الاستاء حزياً لمصر ^(٢). ويوحى الله الى نبيه ارميا أن يشتري ابريقاً من خزف ، ويكسره أمام شيوخ الشعب وشيوخ الكهنة ويقول لهم : هكذا قال رب الجنود : هكذا اكسر هذا الشعب وهذه المدينة كما يكسر وعاء الفخاري بحيث لا يمكن جبره ^(٣).

ويقول الله للنبي هوشع : اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى لأن الأرض قد زنت زنى تاركة الرب ، وكذلك يفعل هذا النبي ما أوحى اليه ^(٤). ويقول له : اذهب أيضاً أحب امرأة حبيبة صاحب وزانية كمحبة الرب

١ — انظر ذلك في مختلف كتب العهد الجديد.

٢ — ٢ : إشعياء.

٣ — ١٩ : ارميا.

٤ — ١ هوشع.

لبنى إسرائيل وهم ملتفتون الى آلهة أخرى ومحبون لأقراص الزيب وكذلك يفعل^(١).

(٥) وهذا القصور الواضح في الملاحظة ، فاليهودية دين خاص لاسرائيل ابن الله البكر وشعبه المختار ، واقرأ إذا شئت أسفار العهد القديم لترى محابة الله لهذا الابن المدلل وإشار مصالحه وإن يك ذلك على حساب الآخرين ، واقرأ تشريعاته المختلفة التي يؤثر فيها رضى هذا الشعب ويتملق عاطفته ويفرق فيها بينه وبين الناس الآخرين ، فهي إذن عنصرية دينية لا يقرها عدل الله ولا انصاف العقل ولا اتزان الحق. لا يقرها عدل الله الذي وزع قوانينه العادلة بين أشياء الدنيا كلها على السواء ، ولا يقرها انصاف العقل الذي لا يرى أحداً أولى بالله من أحد ولا جنساً أحق برعاية الله من جنس ، ولا يقرها اتزان الحق الذي ينكر هذه الحدود ويمقت هذه الفوارق وتعالى حكمة الله وتعالى تشريعه عن سفاسف الشهوات.

وحري بدين يختص بشعب واحد من شعوب الدنيا أن لا يتوقع من الناس الآخرين — على الاقل — تصديقاً في دعوة أو إيماناً بعقيدة أو خضوعاً لشريعة ، وما يعني هؤلاء من أمره مادام لا يعنيه أمرهم ؟ وما يحدوهم الى التفكير فيه ماداموا خارجين عن حدوده بعيدين عن رعايته ؟ وبالأحرى ماداموا في نظرتهم نافلة من البشر لا يؤبه لشأنهم ، ولا ترعى حقوقهم.

والمسيحية أنفذ بصرها من اختها الكبرى في هذه الناحية ، إلا أنها قد

تنكرت أشد التنكير للناحية المادية في الانسان ، حتى أنها تكاد تؤمن بأن الانسان ملاك يجب أن تبت أواصره بالأرض ، روحاني يجب أن تقتلع جذوره من الطين ، وأن غرائز الانسان مخلفات من حيوانيته الاولى فيجب أن تكبت وتقهّر ليسلم الانسان لروحه ولترتقي روحه الى مداها الأعلى.

وتجاهلت ان الانسان كل ، يفسده التبعض ، بل ووحدة تبطلها التجزئة. وما حياة جسد بلا روح ؟ وما جدوى روح بغير جسد ؟ ماجدواها في بناء هذي الحياة وتعمير هذه الدار ؟.

وما رقي روح جسدها مرهق القوى مكبوت النوازع ؟
أترى أن مثل هذه الروح تطيق حمل الاعباء ، أعباء الدين الذي تمحضت له بله الحياة التي أعرضت عنها ؟ فليس الدين هلوسة تعتزل في الصوامع وتبتعد عن المجامع ، وليس الدين مخلوقاً مائل الشق ، وليس ميزاناً شائل الكفة ، ينظر في صلة المرء بآخرته ويقطع اواصره بدنيته ، وما عدل دين يحيف على ناحية ليوفر على اخرى ؟.

وبعد فهي دعوة الى هدم الحياة ولا يحتملها دين يتطلب منه تنظيم الحياة ، بل ولا يحتملها دين يرجى أن تطول به الحياة.

كذلك فكرت المسيحية في نظرتها الى الانسان والى مركزه من الكون ، ووظيفته في الحياة. أن ينكمش في زاوية لا يتخللها نور الدنيا ، ولا ينفذ اليها نسيمها ، وأن يقيم فيها على حذر ، وينظر الى ماحوله بتريب !!.

وعلى هذه الأسس المنهارة بنت علاقة الفرد بالفرد وبالأسرة والمجتمع ،

١٩٦ الإسلام
واعطت مالمقيصر لقيصر وما لله لله ، فالدين في رأيها غير عام النظرة لشؤون
الدنيا ، ولا تام الملاحظة في علاقات الانسان ، ومن اجل هذه التعاليم
الشائبة كانت هزيمتها النكراء وكان فشلها الذريع.

* * *

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ
قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ ^(١).

في سابق هذه الآية الكريمة احتجاج قوي العارضة وإنكار شديد اللهجة
على الذين زعموا أن الله هو المسيح بن مريم ، وعلى الذين قالوا ان الله ثالث
ثلاثة. واذن فالخطاب والنداء في الآية يتوجهان الى النصرارى الذين غلوا في
دينهم غير الحق فأحلوا السيد المسيح فوق رتبته من الرسالة ، ومنحوه فوق
مترلته من الكرامة ولا يمتنع أن يعمم الخطاب غير النصرارى من أهل الكتاب
فقد غلوا كذلك في دينهم ، وركبوا متون الاهواء والشطط في أمر المسيح ،
ولعل هذا هو الوجه في نداء أهل الكتاب.

تقول الآية الكريمة ان اشباع المسيح حين يغفلون في دينهم غير الحق
ويُفَرِّطون في مقام هذا الرسول الكريم من العقيدة فيزعمون وحدة اللاهوت
فيه بالناسوت ، أو يقولون : الرب ذات واحدة لها ثلاثة أقانيم فانما يتبعون
بذلك أهواء قوم درجوا من قبلهم على هذه الضلالة ، وسبقوهم بالخلود الى
هذه المزايع.

وتقول آية كريمة اخرى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ

موازين ونتائج ١٩٧

النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِتُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿١﴾ ولعل هذه أوضح من تلك في الدلالة على المعنى.

هكذا يقول قرآن محمد ﷺ قبل عديد من القرون !. كتاب محمد ﷺ العربي الأمي الذي لم يقرأ تأريخ الرومان والبوذيين والصينيين ، ولم يدرس عقائد البراهمة والفرس والمصريين ، ولم يبحث في تأريخ الأديان الأولى وعلاقات بعضها ببعض ، ومدى تأثير بعضها في بعض ، محمد ﷺ الذي درج بين عرب مكة وبدو الجزيرة الذين لا يفقهون قليلا عن هذه الامم ولا يعلمون شيئا عن هذه الاديان ولا يدركون سراً من هذه العلاقات.

بلى. هكذا يقول كتاب محمد الرسول العربي ﷺ قبل أن يعرف الناس تأريخ هذه الامم وقبل أن يستبين لأحد مدى هذه العلائق !.

وجاء المنقبون من مؤرخة الاديان وباحثة العلاقات ومتتبعه الآثار جاء المنقبون من كل هؤلاء. وبعد مئات من السنين وطويل من الجهود فاذا بعقيدة التشليث صورة منقولة عن عقيدة الرومان والبوذيين واذا بفكرة الأقانيم تعود الى الفرس والهنود الاقدمين ، واذا بوحدة الأب والابن ترجع الى مصدر برهمي قديم.

وحى عقيدة الصلب وعقيدة الفداء فقد كانتا لأهالي (النيبال) في الهيم (أندرا) ولقدماء المصريين في مخلصهم (اوزيويس) وحى النبوة الالهية

١٩٨ الإسلام
للرومانيين في (روملوس) حيث زعموا أن امه (رياسلفيا) المنذورة للعفة
ولدت له من (مارس) إله الحرب.

وللهنود القدماء الذين يؤمنون (بسافري) الشمس الإله الواحد وبابنه
(آبي) النار الذي تجسد من (فايو) الروح الحي في بطن (مايا) العذراء. وكل
هذا شهدت به آثار الامم القديمة.

ومن يتتبع تأريخ الاديان يجد ظلالا كثيرة من الوثنية الرومانية ومن
البرهمية والصينية ، ومن الديانات القديمة الاخرى قد ارتسمت بوضوح
على اليهودية والمسيحية القائمتين.

* * *

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ
الْحَقُّ ﴾^(١).

وهذه آية اخرى من قرآن محمد ﷺ وليد مكة ورب الجزيرة وعشير
العرب. فيها نبوءة صادقة بغيب مستور وفيها نبع فياض لأدلة لاتتناهى !!
سنريهم آياتنا في الآفاق .. وفي أنفسهم. هذه القولة التي صدقها العلم
التجريبي الحديث ، وهذه الموعدة التي برت بها القدرة الفائقة المحيطة هي
الانباء بالغيب في الآية الكريمة.

سنري الناس آياتنا رأي عين حتى لا يرتاب منهم أحد وحتى يتبين لهم
أنه الحق سنرينهم ذلك في المستقبل الآتي فان الآيات الوفيرة الغفيرة التي
يرونها الآن بأعينهم ويدركونها بعقولهم وبصائرهم لا تساوي قطرة من

موازين ونتائج ١٩٩

الحيط الذي سيكتشفونه فيما بعد من العجائب ، من عجائبنا التي بثناها في الآفاق أو أودعناها في الأنفس.

ولقد كان الانسان يوم أنبأه القرآن بهذا الغيب ، وحين قطع الله له هذا العهد جاهلا لا يفقه من أسرار نفسه ولا من بدائع الكون الذي يحتضنه والآفاق القريبة التي تحيط به والآخرى التي تنأى عنه ، لا يفقه من ذلك إلا اموراً محدودة أدرك يسيراً منها بالحس ، وعلم شيئاً منها بالفطرة ، وأفاد قليلاً منها بالتجربة ، وتلقن أكثرها عن أساطير القدماء وأحلام اليونان.

ثم تلت قرون وتبدلت شؤون ، واذا بالانسان هذا يقيم المراصد العظيمة ليعلم أسرار الآفاق ، ويعد الاجهزة العجيبة ليحصي حركات النجوم ويهيء المقاييس الدقيقة ليعرف أبعاد الكواكب ، ويضع الموازين الحساسة لقيس سرعة النور ، ويبتكر الوسائل الفنية ليعين بها مدارات الاجرام في الحركة وزنة أحجامها في الكتلة ، وعدد عناصرها في التركيب ، واذا بالمراصد تبدي له من شمس الآفاق ما لا يصل نوره الى الأرض إلا بعد ألف من ملايين السنين ، بعد هذه الآمد الطويلة يقطعها النور ، وقد أوضحت له مقاييسه التي ابتكرها واختبرها ان النور يقطع بسرعه في كل ثانية مئة وستة وثمانين ألف ميل.

واذا بالانسان يقف من نفسه موقف المتحسس المتطلع ، يسير اغوارها ويمحص طباعها ، ويتتبع غرائزها ، وينوع ملكاتها ويصنف أخلاقها ، ويبحث عن ينبوع كل خلق ، ويتقصى آثار كل نزع ، واذا به يستحفي عن أجهزته وقواه ، وعن عضله وأنسجته ومصادر نشاطه وجزئيات تركيبه

وتفاعلات عناصره وعن كل شيء منه ، واذا بكل ناحية من نواحي الانسان الكثيرة لها علم يختص بدراستها ، وعلماء يدأبون في حل مغلقاتها ، واذا بكل علم من هذه العلوم يطلع الانسان على غرائب من نفسه ليست تخصى ، ويبين له أسراراً من تكوينه ليست تعد !!.

وإذا بالمجهر يريه الوفا من الخلايا في العضو الصغير من اعضائه وملايين من الكريات في القطرة الواحدة من دمه ، واذا بعلم وظائف الاعضاء يوضح له كيف تكدح هذه الكريات في تغذية جسمه ، وكيف تتناصر في دفع العوادي عنه ، وكيف تساندها الخلايا في بناء ينهدم وسد ما ينثلم !! ، واذا بالعقل يستوقفه عند كل خاصة من هذه العجائب ليجلو له حكمة جديدة أو لبدله على صنع متقن !. واذا بقرآن محمد ﷺ ينبئه بهذا التقدم قبل هذا العديد من القرون !!.

بلى. كان الانسان يبصر بعينه المجردة فلا يرى من الأشياء إلا ظواهر ، وقيس بعقله المفرد فلا يدرك من أسرار الامور إلا بسائط ، وقد وجهه القرآن — لتثيت عقائده — الى الظواهر التي يحسها ، وإلى البسائط التي يعقلها ، فإن في ذلك دلالة وافية كافية.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا * وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُخْرِجَ بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا * ... وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا

موازن ونتائج موازين ٢٠١
بَرَزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا
وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿١﴾.

هكذا يدفع القرآن بالانسان دفعا لينظر وليتأمل في ماحوله من مظاهر
وما يبدو له من أسرار ، فما خلقت هذه العجائب الكونية وما ملئت بها
الآفاق والاعماق ليقلب الانسان فيها بصره فينال منها متعة النظر فحسب ،
ولكن ليفتش اسرارها ويسير اغوارها فيفيد من ذلك علماً يكمل به نفسه
ويصلح دنياه ، وعقيدةً تثبت بها دينه ويسعد حياته ويصلح آخرته. هكذا
يدفع القرآن بالانسان في هذه الآيات وفي نظائرها.

ولكنه في الآية السابقة يومي الى هذا العملاق الجبار الذي يخضع الطبيعة
لإرادته ويسيطر على قواها بعلمه الى الانسان المقبل الذي يكتشف خبايا
الكون بالمنظير والمجاهر ، ويحلل عناصر الموجودات بالمختبرات والمعامل ،
الى إنسان القرن العشرين الذي يقف على نبع النور في المواد البسيطة ،
ويستبطن طاقة الذرة في وحداتها الدقيقة ، ويفتح الغلقات من رموز
الكون ، ويبرز المكونات من أسرار الطبيعة ، الى هذا الكائن الطموح الذي
يحاول أن يرقى أسباب السماء بسلم ، وأن ينفذ من أقطارها بسلطان ، والذي
يثبت بالمشاهدة وبدقة الملاحظة أن الذرة الصغيرة تحتوي نظاماً شمسياً
كاملاً دقيقاً كنظام الافق الشمسي الكبير !!

يجد أن في هذه الهبأة التي لا تدرك لصغرها إلا بعجهر. يجد أن فيها فلكا
صغيراً كهذا الفلك المحسوس الكبير ، وأن في فلك الذرة نواة تتوسطه كما

تتوسط الشمس هذه المجموعة الشمسية ، وفيه (الكترونات) جسيمات صغار تدور حول أنفسها وحول النواة كما تدور الكواكب السيارة حول أنفسها وحول الشمس ولتلك السيارات الصغيرة في فلكها الصغير مدارات وميول محدودة مضبوطة كما للكواكب السيارة سواء بسواء. وفي الذرة قانون تجاذب يعدل تلك الحركة ويجرس نظامها كقانون التجاذب الذي يعدل الحركة في المجموعة الشمسية ويجرس نظامها. وأغراه هذا التشابه الذي ألفاه بين المنظومة الذرية والمنظومة الشمسية ان يمعن في النظر فيه وأن يتقص حدوده ويضرب في أبعاده ، فأكب يفحص ويعادل ويدقق ويضبط. فوزن نواة الذرة ووزن الذرة كلها ثم وزن الشمس ووزن المجموعة الشمسية كلها ونسب النواة الى الذرة ونسب الشمس الى المجموعة فوجد أن النسبة بذاتها هي النسبة ، فكلا الشمسين يساوي وزنها (٩٩.٩) من وزن مجموعتها.

وضبط المسافة ما بين الالكترونات بالنسبة الى قطر الذرة ، وضبط الأبعاد ما بين الكواكب السيارة بالنسبة الى قطر المجموعة فوجد كذلك ان النسبة بعينها هي النسبة.

وعطف الى قوى التجاذب التي تنظم الكواكب في مواضعها من الفلك وفي حركاتها حول الشمس والاخرى التي تنظم الالكترونات في مداراتها من الذرة وفي سبوحها حول النواة فرأى أن المعادلات الحسابية التي تتبعها قوى التجاذب هنا هي نفس المعادلات التي تتبعها هناك.

وجد الانسان كل هذه المدهشات المحيرات في الذرة ، أفتدري كم هو مقدار الذرة في الحجم ؟.

موازن ونتائج ٢٠٣

إذا أخذنا مليمترًا واحدًا فقسمناه عشرة ملايين جزء ، فان أحد هذه الأجزاء — على وجه التقريب — ذرة يحتوي ذلك النظام الدقيق الرتيب !!.

ونواة الذرة والبروتونات والنيوترونات التي تتقوم منها النواة والجسيمات الاخرى (الالكترونات) التي يتم بها تركيب الذرة ، وما في النواة من شحنة كهربائية موجبة تعادلها ما في (الالكترونات) من شحنة سالبة ، كل أولئك أسرار خطيرة كشفها رائد العلم وأخضعتها قدرة الانسان !! ونواة الذرة هي مخزن طاقتها الرهيبة العجيبة التي يملك الانسان أن يدمر بها العالم وأن يضمن له بها الخير !!.

أسمعت أغرب من هذا الاكتشاف وأعظم من هذا المكتشف ؟!.

هذا هو انسان القرن العشرين ومابعده من القرون الآتية ، أفلا يستحق من القرآن لفظة كريمة تميزه عمن سواه من اناسي القرون ؟.

الى هذا المخلوق العظيم يلتفت القرآن في آياته السابقة ليقول له : ان كل ماتكتشفه من سرّ ، وكل ما تستوضحه من حكمة ، وما تبينه لك الآلات من الدقائق والذرات وما يثبت لك التحليل من العناصر والقوى ، وما تبديه لك المراصد من الشمس والكواكب ، وما يجלוه لك العلم من الحقائق والآثار. كل هذا الذي علمته من أسرار الكون وما ستعلمه في الآتي القريب أو المستقبل البعيد كله بينات قاطعة الدلالة على موجد حي عظيم القدرة نافذ الإرادة ، واسع العلم دقيق الحكمة ، غني بذاته عن كل شيء مهيمن بقدرته على كل شيء ، لاتنفد حكمته ، ولا تضعف قدرته ولا ينقطع تدبيره ولا ينتهي وجوده.

هو قبل هذه الأشياء أجمع ، وهو معها أجمع ، وهو بعدها أجمع.

هو قبل الأشياء لانه خلقها ، وخالق الشيء لابد وأن يكون قبله وهو مع الأشياء لانه صرّفها من حال الى حال ومن صورة الى صورة ومن زمان الى زمان ودبرها بمقتضى الحكمة في جميع الاحوال والصور والازمان ومصرف الشيء ومغيره لا بد وأن يكون معه. وهو بعد الأشياء ، لان ما ليس له ابتداء لا يكون له انتهاء.

وبعد أفليس من أشد الامور غرابة أن يقف الانسان العالم المفكر المتبصر دون هذه النتائج المحتومة المعلومة بعد أن يغرس بيديه بذرتها الحية ويفحص بنفسه تربتها الزكية ، ويتعهد بذاته ريتها الكافي ، ويلحظ بعينه نموها الكامل وإثمارها المبهج النافع؟! أليس غريباً أن يصده الهوى عن أحلى المقدمات ويشل منه التصديق دون أصدق النتائج؟!

أليس غريباً أن ينكر هو ويقول قد أنكر العلم ، ويسفه هو ويقول قد سفه الحق؟. متى جاز في العقول أن يوجد شيء من تلقاء ذاته ليقول انسان له شعور وله علم : إن الكون قام وحده دون موجد ودون مدبر؟! أم يقولون : هي الطبيعة الخالقة؟!.

ومن العجيب أن يصدر هذا القول من عاقل حصيف ، إي وعينيك انه لقول عجيب.

أليس في هذه الكشف العلمية الدقيقة ما يحول دون هذا الاسفاف ؟

أليس في دقة الصنع ما يدل على ان الصانع حكيم ؟.

أليس في هبة الحياة ما يدل على ان الواهب حي ؟.

أليس في إضافة ضروب الكمال ما يدل على ان المعطي كامل ؟.

فهل هذه صفات الطبيعة وهي كما يقولون صماء بكماء ؟.

عجيب جداً ان يصدر هذا القول من عاقل حصيف بعد وضوح هذه الامور !.

وبعد فهل يستطيع هؤلاء القائلون بأن الطبيعة هي الخالقة ، وأن يقيموا شاهداً واحداً من هذا الكون الفسيح الرحيب استقلت فيه الطبيعة بنفسها دون تدخل علة فاعلة مختارة ؟ ان يقيموا شاهداً استقلت فيه الطبيعة فاستبدلت بنفسها قانوناً بقانون أو غيرت من تلقاء ذاتها وضعاً بوضع.

ليدلونا على شاهد واحد يشهد لها بهذا الاستقلال مهما كان صغيراً بل ومهما كان تافهاً لتبعهم فيما يزعمون !

لا وربك ليس في مقدورهم ذلك ، ولا في استطاعة أحد من المخلوقين سواهم ، ليس في مقدورهم جميعا وإن فحصوا جسيمات كل خلية وفجّروا نُويّات كل ذرة ..

ليس في مقدورهم ذلك لانهم لا يملكون ان يوجدوا المعدوم أو يوجدوا الممتنع.

أليس في هذا ما يدلنا على ان الطبيعة لا تملك من نفسها ان تصنع شيئاً ، ولا تقدر ان تستقل في عمل ، وان كل ما هناك من خير ومن جمال ومن قوانين ثابتة وسنن دقيقة انما هو صنع يد مدبرة وقدرة مقدرة ؟!.

إن العلم لا ينكر أبداً لأنه لا يجهل حدوده ، ومحال عليه ان يطلب حقائق ما وراء المادة بأدوات لا تفحص الا المادة ، ومحال عليه أن ينكر حقيقة ما لأنه لم يجدها في مرصده أو مختبره.

أما العلماء فيبدو في الآونة الاخيرة أن فكرة الله بدأت تملأ عقولهم وان الايمان به أخذ يدب في قلوبهم ، واقرأ إن شئت كتاب (العلم يدعو

للايمان) للاستاذ (ا.كريسي موريسون) رئيس اكاڤميّة العلوم بنيويورك وكتاب (الله يتجلى في عصر العلم) الذي ساهم في إخراجه ثلاثون رجلا من اكابر العلماء التحريبيين ، والكتابان ثروة علمية لاغناء عن الاطلاع عليها.

* * *

واعترافاً بالحق وتقديراً للعلم أود ان اضمن كتابي اول فصل من الكتاب القيم (الله يتجلى في عصر العلم) وكاتب هذا الفصل هو الاستاذ الدكتور (فرانك اللن) عالم الطبيعة البيولوجية ، وعنوان فصله (نشأة العالم . هل هو مصادفة أو قصد ؟) قال :

(كثيراً ما يقال أن هذا الكون المادي لا يحتاج الى خالق ، ولكننا اذا سلمنا بان هذا الكون موجود فكيف نفسر وجوده ونشأته ؟ هنالك أربعة احتمالات للاجابة على هذا السؤال : فاما ان يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال ، وهو يتعارض مع القضية التي سلمنا بها حول وجوده ، وأما ان يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم ، وإما أن يكون أبديا ليس لنشأته بداية ، وإما ان يكون له خالق.

أما الاحتمال الاول فلا يقيم أماننا مشكلة سوى مشكلة الشعور والاحساس ، فهو يعني أن احساسنا بهذا الكون وإدراكنا لما يحدث فيه لا يعدو ان يكون وهما من الاوهام ليس له ظل من الحقيقة. وقد عاد الى هذا الرأي في العلوم الطبيعية أخيراً سير جيمس جيتز الذي يرى أن هذا الكون ليس له وجود فعلي وأنه مجرد صورة في أذهاننا. وتبعاً لهذا الرأي نستطيع أن نقول اننا نعيش في عالم من الاوهام ، فمثلاً هذه القطارات التي

موازين ونتائج ٢٠٧

نركبها ونلمسها ليس إلا خيالات ، وبها ركاب وهميون وتعير انهاراً لوجود لها وتسير فوق جسور غير مادية ... الخ ، وهو رأي وهمي لا يحتاج الى مناقشة أو جدال.

أما الرأي الثاني القائل ان هاذ العالم بما فيه من مادة وطاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم فهو لا يقل عن سابقه سخفاً وحماقة ، ولا يستحق هو أيضاً أن يكون موضعاً للنظر أو المناقشة.

والرأي الثالث الذي يذهب الى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية انما يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون وذلك في عنصر واحد هو الازلية. وإذا فنحن إما ان ننسب صفة الازلية الى عالم ميت واما ان ننسبها الى إله حي يخلق. وليس هنالك صعوبة فكرية في الاخذ بأحد هذين الاحتمالين اكثر مما في الآخر.

ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً وانها سائرة حتما الى يوم تصير فيه جميع الاجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق ، ويومئذ تنعدم الطاقة ، وتستحيل الحياة ، ولا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقات عندما تصل درجة حرارة الاجسام الى الصفر المطلق بمضي الوقت. اما الشمس المستعمرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على ان أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة ، فهو إذن حدث من الاحداث ومعنى ذلك انه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية ، عليم محيط بكل شيء ، قوي ليس لقدرته حدود ، ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه.

ان ملائمة الأرض للحياة تتخذ صوراً عديدة لا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة أو العشوائية. فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها. فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار ، وهي تسبح حول الشمس مرة في كل عام ، فيكون في ذلك تتابع الفصول ، الذي يؤدي بدوره الى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكنى من سطح كوكبنا ، ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية اكثر مما لو كانت الأرض ساكنة. ويحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ويمتد حولها الى ارتفاع كبير (يزيد على ٥٠٠ ميل).

ويبلغ هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يومياً إلينا منقضة بسرعة ثلاثين ميلاً في الثانية. والغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة ، ويحمل بخار الماء من المحيطات الى مسافات بعيدة داخل القارات ، حيث يمكن أن يتكاثف مطراً يحيي الأرض بعد موتها ، والمطر مصدر الماء العذب ، ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية من كل أثر للحياة. ومن هنا نرى ان الجو والمحيطات الموجودة على سطح الأرض تمثل عجلة التوازن في الطبيعة.

ويمتاز الماء بابع خواص هامة تعمل على صيانة الحياة في المحيطات والبحيرات والانهار. وخاصة حينما يكون الشتاء قارساً طويلاً ، فالماء يمتص كميات كبيرة من الاوكسجين عندما تكون درجة حرارته منخفضة وتبلغ كثافة الماء أقصاها في درجة أربعة مئوية. والثلج أقل كثافة من الماء مما يجعل الجليد المتكون في البحيرات والانهار يطفو على سطح الماء لحفته

النسبية فيهيء بذلك الفرصة لاستمرار حياة الكائنات التي تعيش في الماء في المناطق الباردة. وعندما يتجمد الماء تنطلق منه كميات كبيرة من الحرارة تساعد على صيانة حياة الاحياء التي تعيش في البحار.

أما الأرض اليابسة فهي بيئة ثابتة لحياة كثير من الكائنات الارضية ، فالتربة تحتوي العناصر التي يمتصها النبات ويمثلها ويحولها الى أنواع مختلفة من الطعام يفتقر اليها الحيوان ويوجد كثير من المعادن قريباً من سطح الأرض ، مما هيأ السبيل لقيام الحضارة الراهنة ونشأ كثير من الصناعات والفنون ، وعلى ذلك فان الأرض مهيأة على أحسن صورة للحياة. ولا شك أن كل هذا من تيسير حكيم خبير ، وليس من المعقول أن يكون مجرد مصادفة أو خطب عشواء ولقد كان إشعياء على حق عندما قال مشيراً الى الله : « لم يخلقها باطلاً. للسكن صورها » (٤٥ : ١٨).

وكثيراً ما يسخر البعض من صغر حجم الأرض بالنسبة لما حولها من فراغ لانهائي. ولو أن الأرض كانت صغيرة كالقمر ، أو حتى لو أن قطرها كان ربع قطرها الحالي لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الجوي والمائي اللذين يحيطان بها ، ولصارت درجة الحرارة فيها بالغة حد الموت.

أما لو كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالي لتضاعفت مساحة سطحها أربعة اضعاف ، وأصبحت جاذبيتها للأجسام ضعف ما هي عليه ، وانخفض تبعاً لذلك ارتفاع غلافها الهوائي ، وزاد الضغط الجوي من كيلو جرام واحد الى كيلو جرامين على السنتيمتر المربع ، ويؤثر كل ذلك أبلغ الاثر في الحياة على سطح الأرض ، فتتسع مساحة المناطق الباردة اتساعاً كبيراً ، وتنقص مساحة الأراضي الصالحة للسكنى نقصاً ذريعاً ، وبذلك تعيش الجماعات

الانسانية منفصلة أو في أماكن متناثرة ، فتزداد العزلة بينها ويتعذر السفر والاتصال بل قد يصير ضرباً من ضروب الخيال.

ولو كانت الأرض في حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها لتضاعفت جاذبيتها للأجسام التي عليها ١٥٠ ضعفاً ، ولنقص ارتفاع الغلاف الجوي إلى أربعة أميال ، ولأصبح تبخر الماء مستحيلاً ولا ارتفع الضغط الجوي إلى ما يزيد على ١٥٠ كيلو جراماً على السنتيمتر المربع ولوصل وزن الحيوان الذي يزن حالياً رطلاً واحداً إلى ١٥٠ رطلاً ، ولتضاءل حجم الإنسان حتى صار في حجم ابن عرس أو السنجاب ، ولتعذرت الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات.

ولو أزيحت الأرض إلى ضعف بعدها الحالي عن الشمس ، لنقصت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية ، وقطعت الأرض دورتها حول الشمس في وقت أطول ، وتضاعفت تبعاً لذلك طول فصل الشتاء وتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض. ولو نقصت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ما هي عليه الآن لبلغت الحرارة التي تتلقاها الأرض أربعة أمثال ، وتضاعفت سرعتها المدارية حول الشمس ولآلت الفصول إلى نصف طولها الحالي إذا كان هنالك فصول بالمرة ، ولصارت الحياة على سطح الأرض غير ممكنة.

وعلى ذلك فإن الأرض بحجمها وبعدها الحاليين عن الشمس وسرعتها في مدارها تهيم للأنسان أسباب الحياة والاستمتاع بها في صورها المادية والفكرية والروحية على النحو الذي نشاهده اليوم في حياتنا.

فاذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكمة وتصميم سابق فلا بد أن تكون قد

موازنين ونتائج ٢١١
نشأت عن طريق المصادفة. فما هي تلك المصادفة إذن حتى تدبرها ونرى
كيف تخلق الحياة ؟.

إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الآن من الأسس الرياضية السليمة
ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حيثما انعدم الحكم الصحيح المطلق وتضع
هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب الى الصواب مع تقدير احتمال الخطأ في
هذا الحكم ... ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة
الرياضية تقدماً كبيراً حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض
الظواهر التي نقول إنها تحدث بالمصادفة والتي لانستطيع أن نفسر ظهورها
بطريقة أخرى (مثل قذف الزهر في لعبة النرد). وقد صرنا بفضل هذه
الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة وما
يستحيل حدوثه بهذه الطريقة ، وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من
الظواهر في مدى معين من الزمان. ولننظر الآن الى الدور الذي تستطيع أن
تلعبه المصادفة في نشأة الحياة :

إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية. وهي
تتكون من خمسة عناصر هي : الكربون ، والاييدروجين ، والنيتروجين
والاوكسجين ، والكبريت. ويبلغ عدد الذرات في الجزيء ، البروتيني الواحد
٤٠٠٠٠ ذرة ولما كان عدد العناصر الكيميائية في الطبيعة ٩٢ عنصراً موزعة
كلها توزيعاً عشوائياً ، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون
جزيئاً من جزيئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن
تخلط خلطاً مستمراً لكي تؤلف هذا الجزيء ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية
اللازمة لكي يحدث هذا الاحتمال بين ذرات الجزيء الواحد.

(وقد قام العالم الرياضي السويسري تشارلز يوجين جاي بحساب هذه العوامل جميعاً فوجد أن الفرصة لاتتهدأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة ١ الى ١٠ × ١٦٠ ، أي بنسبة ١ الى رقم عشرة مضروباً في نفسه ١٦٠ مرة. وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات. وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد اكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات. ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لاتحصى من السنوات قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين (١٠ × ٢٤٣ سنة).

ان البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الاحماض الأمينية. فكيف تتألف ذرات هذه الجزيئات ؟ انها اذا تألفت بطريقة اخرى غير التي تتألف بها ، تصير غير صالحة للحياة ، بل تصير في بعض الاحيان سموما. وقد حسب العالم الانجليزي ج. ب. ليشنر الطرق التي يمكن أن تتألف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات فوجد أن عددها يبلغ الملايين ١٠ × ٤٠.

وعلى ذلك فانه من المحال عقلاً أن تتألف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئاً بروتينياً واحداً.

ولكن البروتينات ليس الا مواد كيميوية عديمة الحياة ، ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذي لاندرى من كنهه شيئاً. انه العقل الالاهائي ، وهو الله وحده الذي استطاع أن يدرك ببالغ حكمته أن مثل ذلك الجزيء البروتيني يصلح لأن يكون مستقراً للحياة فبناه وصوره

موازن ونتائج ٢١٣
واغدق عليه سرّ الحياة).

هكذا يبلغ العقل الحصى غايته العظيمة إذا عرف السبيل ، ولم يقف به
الخور ولم تنحرف به الالهواء. وهكذا يستبين صدق قول الله في كتابه :
﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ ﴾ ^(١).

في ظلال العقيدة

طبيعي أن يكون العقل أول ناحية من الانسان تنصرف اليها عناية الدين وأحقها بالمزيد من تهذيبه ، فالعقل أسمى موهبة يختص بها الانسان وأولى ميزة يرتفع بسببها عما حوله من الكائنات.

والعقل هو المصدر الاول لأفكار الانسان والمتلقى الاعظم لتصوراته ، الحق منها والباطل ، المنتج منها والعقيم ، الرفيع منها والضيع. وللعقل اشراف تام أو ناقص على صفات المرء التي يكتسبها بالتخلق ، وعلى مراميه التي يندفع نحوها بالرغبة ، وعلى أعماله التي يصدرها بالاختيار.

والعقل من وجهة خاصة هو المجال الاول للدين ، فقد علمنا ان الدين هو منهج الانسان الى كماله الأعلى الذي يبلغه بالاختيار ، والتفسير الواضح لذلك : ان الدين هو النهج القويم لتزكية العقل في ذاته وتوجيهه الى الرشد في سلوكه.

وهذا منهج اليه كل دين فيما نعلم ، فان العقيدة من كل دين هي الاساس

٢١٦ الإسلام
المتين الذي يقوم عليه هيكله ، أو الدعامة المكيّنة التي تشد بناءه. ومن أجل ذلك وجب أن تكون العقيدة جلية لا اثر فيها للغموض. وثابتة لا مجال فيها للترنزل ، وبقينية لا ظل فيها للريب. لأن العقيدة وظيفة عقلية في مرحلتها الأولى والعقل صريح في أحكامه لا يقبل من الوظائف ما فيه غموض أو وهن أو اضطراب.

ولقد صدمت المسيحية كبرياء العقل حين دفعت اليه حزمة من العقائد لم يفقه للكثير منها مفهوماً ، ولم يجد للبقية منها برهاناً ، بل وادرك ان الكثير منها متناقض الفكرة منحل القواعد. حين دفعت اليه هذه الحزمة من العقائد ، ولم تجعل له حقاً في نقدها ، ولا خياراً في قبولها.

وانكمش العقل لهذه الصدمة ولم يدر ماذا يقول ، وما يقول وقد ابعد عن الحكم وحجر عليه القول ومنعت منه الخيرة؟! ولكنه بقي يتساءل : إذا كان الأمر خارجاً عن يده فلماذا يطلبون منه الاقرار؟!.

وقال رجال المسيحية — يلطفون الجو ويعللون الأمر — : اسرار الدين لايسمو اليها العقل ، ومن الخير له ان يؤمن وإن لم يفقه ، فان الدين لايدعوه إلا الى خير. وقال اتباع الكنيسة : الايمان مركزه الوجدان.

وقال بعض الفلاسفة المحافظين : سبيل الانسان الى المعرفة اليقينية هو الحس والتجربة ، وهما لا يستطيعان ان يدركا حقيقة الله ولا اسرار الدين. فموضعهما القلب وليس موضعهما العقل.

وانكمش العقل لأنه رأى الناس يتخادعون على حسابه. وبقي يتساءل مرة اخرى : اذا كان الدين لامكان له في العقل فبم يميز هؤلاء الخطاء في

الاديان من الصواب ؟!

إن العقيدة وظيفة عقلية في مرحلتها الاولى فيجب ان تكون جلية لا اثر فيها للغموض ، وثابتة لا مجال فيها للزلزل و يقينية لا ظل فيها للريب. لأن العقل لا يقبل من الوظائف ما فيه غموض أو وهن أو اضطراب. ومن اجل ذلك تنوع الإسلام في البرهنة على اصوله واستحث الانسان على التأمل فيها وشجعه على نقد حججها كي يوقن عن بصيرة ثم يعتقد عن يقين :

الدين سبيل التكامل الاختياري في نفس المرء وفي عقله ، ومحال أن يبلغ بالمرء هذا المدى ما لم يكن على صلة وثيقة بنفس المرء وعقله ، ومحال ان يبلغ بالمرء هذا المدى ما لم تخضع نفس المرء وعقله لأوامر الدين وارشاداته ، وما لم يكن هذا الخضوع منهما عن طوعية واختيار ، محال ان يصل الدين بالانسان الى تلك الغاية ما لم يبلغ من نفس الانسان ومن عقله هذا المبلغ. وكيف يخضع هذان لأوامر الدين وهداياته إذا لم يكن الانقياد لمشرعه والاطاعة لمبلغه عقيدة راسخة يتفهمها العقل وتمتليء بها النفس ؟.

هذه السبيل الطبيعية للدين متى أراد أن يسلك سلوكا جدياً الى الغاية.

على أن الدين في حقيقة المفهومة وفي وضعه اللازم. بل وفي مجاله اللغوي ايضاً رباط عبودية خاضعة يشد الانسان الى إله قادر قاهر ، ورسوم ترتكز على معاني تلك العبودية وهذه الربوبية يشرعها الرب ويمثلها العبد وقد مرّ شرح هذا مفصلاً فليراجعه القارئ اذا شاء.

وإذن فالعقيدة هي الركيزة الاولى للدين ، وحجر الزاوية من بنائه.

على أن للإسلام من وراء العقيدة مرامي بعيدة الهدف بالغة الأهمية

٢١٨ الإسلام
عظيمة الجدوى.

فالعقيدة في الإسلام مفتاح لتثقيف المرء وإذكاء مواهبه وتفتيق مافي ذهنه من طاقة وارضاء مافي نفسه من طموح ، وللدفع به الى الثقافة العالية والسمو به الى المدنية الصحيحة.

يروم الإسلام من وراء العقيدة أن يدفع المرء ليكتشف ويوجهه ليتكرر ويستحدثه ليتقدم ويرتفع.

يريد أن يقيم العقيدة على كشوف العلم حتى لايزيدها اطراد العلم إلا وضوحاً ، وأن يربط العلم بالعقيدة حتى لا يفيد رسوخ العقيدة إلا قداسة. يريد أن يتبنى العلم من حيث أنه سند له في تمكين العقيدة فلا يقولن متنطع إن الدين يناكر العلم ، ثم يبارك العلم حيث أنه وزر له على نيل الغاية فلا يفوهن متشدق ان العلم يصارم الدين.

الدين سبيل التكامل الاختياري في نفس المرء وعقله ، ولن يتم هذا التكامل إلا بالعلم ولن يتم إلا بالتهذيب.

من ثم كانت العقيدة في دين الإسلام مفتاحاً للنظر في علوم الكون .. في علوم الكون كافة دون استثناء ودون اختلاف. فدلالة الخليقة على الخالق ، ودلالة الابداع على حكمة المبدع ودلالة وحدة الأشياء في التصميم على وحدة المصمم ، هذه الشهادات يجدها العالم في فطرة الخلية البسيطة كما يجدها في حلقة الانسان المعقدة ، ويراهها في تكوين الذرة الصغيرة كما يراها في تنظيم الحجرة الكبيرة.

ففي هذا الدين يجب النظر في شؤون الفلك وفي أسرار الطبيعة وفي قوانين الحياة وفي فلسفة التكوين وفي دقائق التركيب وفي خواص الأشياء وانظمة

الاحياء ، وفي خصائص كل نوع وفي مميزات كل نصف وفي حكمة كل جزء وفي غاية كل موجود.

كل أولاء يجب النظر فيه لتثبيت العقيدة في دين الإسلام ، والآيات الدالة على ذلك كثيرة في القرآن ، وقد اطلع القاريء على عدد منها في الفصول السابقة.

العقيدة في صورتها معرفة ولا بد للمعرفة من الدليل.

وهي بعد استكمالها إيمان ولا بد في الإيمان الرسوخ.

وهي عند إثمارها عمل ولا بد في العمل من الاخلاص.

وهذا هو هيكل العقيدة التي يبتغيها الإسلام من كل مسلم.

يريد منه أن يعرف حتى لا يساوره في معرفته ريب ، وأن يؤمن حتى لا تعروه في إيمانه ذبذبة ، وأنه يخلص حتى لا يخامره في أعماله ولا في صفاته فسوق ولا رياء.

يريد منه أن يكون صورة ماثلة شاحصة للقوة والثبات والصدق في

عرفانه وفي إيمانه ثم في سلوكه وأعماله وصفاته وسماته

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا

بِمَاوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾^(١).

هذا التجنيد الكامل للعواطف والمشاعر والغرائز والأخلاق والسرّ

والعلانية للإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله ، هذا هو الإيمان الصادق

الذي يبتغيه الإسلام من أتباعه.

وأية شيمة من شيم الخير يفقدها المسلم وأية خلة من خلال السوء يداينها إذا خضع لهذه القيادة واتبع هذا الهدى ، وإذا كان لا يعمل إلا عن عقيدة ولا يعتقد إلا عن برهان ؟.

أما خلاصة العقيدة في دين الإسلام فهي :

(١) توحيد الله في الالهية والربوبية توحيداً نقياً صافياً لا شائبة فيه لشرك ولا ظل فيه لتكوين ، ولا أثر الحلول أو اتحاد ، عميقاً عميقاً تمتد جذوره الى ارادة المسلم فلا يعبد إلا الله ولا يستعين إلا به ، والى خلجات نفسه فلا يخشى احداً إلا الله ولا يضرع لكائن سواه ، والى آمال قلبه فلا يرجو غير الله ولا يرغب إلا اليه.

أما توحيد الله في الصفات فهو شوط كبير يختص به المذهب الاثنى عشري في مضمار التوحيد ، وبالأحرى هو تفسير دقيق للتوحيد الخالص الذي يجب أن يعتقده المسلم.

ومرد هذه الفكرة الى أمرين :

أ) أن الله وحده مطلق الكمال في كل نعت يعد ظهوراً للكمال.

ب) وأنه سبحانه غني بذاته عن أي علة أو صفة هي غير ذاته.

فالله سبحانه حي بنفسه لا بعله أو صفة غير ذاته تؤتيه الحياة ، والله قادر بنفسه لا لعله أو صفة تكسبه القدرة ، وهو عالم بنفسه لا من اجل علة أو صفة تفيده العلم ، وهو سميع وبصير بنفسه لا بآلة أو علة أو صفة توليه السمع.

ثم هو كامل وغني بنفسه لا بسبب علة أو صفة غير ذاته تمنحه الكمال والغنى.

فليس لله صفة تزيد على ذاته ، فان المدلول الصريح للصفات الزائدة أن الذات استكملت بها عن نقص وارتفعت من ضعة واستغنت عقيب حاجة. ولا يجدي فتيلًا في رفع هذا المحاذير أن الصفات واجبة كوجوب الذات وقديمة كقدمها وأنها لم تنفصل عنها في الأزل ولن تنفصل عنها الى الابد. لا يجدي ذلك في رفع المحاذير بعد أن كانت غير الذات وإستكمال الذات بها لا يكون إلا عن نقص في الذات وان لم يحصل في زمان.

ليس الله صفة بالمعنى الذي يستلزم الهبوط في الذات وإنما صفاته في الوجود عين ذاته ...

عين ذاته الواحدة في الوجود المترهة عن التركيب المستجمعة للكمال ، المستأثرة بالغنى.

(٢) تنزيه الله عن كل ناقصة من الصفات وعن كل شائن من الافعال. فلا وهن ينال قدرته العامة ، ولا ظلم يثلم عدله الشامل ، ولا جهل يدنس علمه المحيط ، ولا عبث يشين حكمته التامة ، ولا نقص يلحق كماله المطلق. ومن مظاهر هذه العقيدة تنزيه الله عن الجبر في الاعمال وعن الاكراه في الدين ، ومن أضوائها تنزيه أنبياء الله وحججه عن كل ما يهبط بالنفوس الزكية ويتضح بالصفات الحميدة.

(٣) إذا كان الدين ضرورة يلجئ اليها انتظام الحياة ، وإذا كان واضع الدين يجب ان يكون هو واضع نظم الحياة ، وإذا كانت كرامة الانسان وحرية توحيان اليه أن لا يخضع في الدين إلا لمن يخضع له في التكوين. اذا كان جميع هذا حقاً لأمراء فيه — وقد علمنا من قبل أنه كذلك ، وعرفنا أنه حكم البرهان وقضاء الفطرة — فلا بد لهذا الدين من مبلغ.

ولا بد له بعد فقد المبلغ من الحجة الحافظ.

الدين نظام اختياري يرتكز على الارادة ويتكيء على البرهان ، فهو لذلك يفتقر الى المبلغ المأمون.

والدين شريعة وضعية تقوم على الموازنة وتستمد من الملابسات فهو من أجل ذلك نصبٌ للطوارئ وعرضة للتحريف ، وهو من اجل ذلك يفتقر الى الحافظ المأمون.

مبلغٌ يستوعب شريعة الله كاملة ويؤديها الى الناس غير منقوصة.

وَقِيمٌ يستودعه ذلك المبلغ أمانته و يقيمه ملجأً للأمة بعد موته.

ذلك المبلغ الذي يحمل رسالة الله في دور التأسيس هو الرسول.

وهذا القيم الذي ينوب عن الرسول في حفظ الشريعة هو الامام.

(٤) إذا كان الله سبحانه مصدر كل شيء في البدء فان اليه مصير كل

حي في النهاية واذا كان هو الرقيب على الاعمال في الدنيا فهو الحسيب المجازي عليها في الآخرة ، واذا كان الدين منهجاً للانسان لا محيد من وضعه ولا مناص من اتباعه فلا محيص من يوم يقوم المرء فيه لتصفية النتائج واستيفاء التبعات.

اما البعث والنشور فان الحديث عنه أوضح من أن يسجل وأبين من أن

يفتقر الى دلالة ، أليس من الهزل العابث أن يقول قائل : إن فلاناً الصانع الماهر قادر على أن يعيد ما ابتكره ؟!

ثم أليس من السخف المضحك بعد ذلك أن يطلب أحد من هذا القائل

بينة على صحة هذه الدعوى ؟!

أرايت بناءً يقيم عمارة عظيمة تبدو فيها براعة الفن ومهارة الصناعة

وجمال الذوق ، ثم يعي' عن تجديدها اذا طرأ عليها طاريء ؟!.

أم رايت إمرءً ذا مسكة من شعور يكبر على هذا البناء أن يعيد عمارته بما فيها من فن وبما لها من جمال ؟!.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (١).

وللعقل في دين الإسلام منزلة سامية لن تبلغها أية موهبة اخرى من مواهب الانسان ، فالعقل هو المفزع في التمييز الخير والشر وتبيين الحق من الباطل ، والعقل هو سرّ التفاضل في درجات الرجال ، فهو الملاك في استيجاب المتزلة والكرامة في الدنيا وهو المدار في إستحقاق المثوبة أو العقوبة في الاخرى ، وقد قال الرسول ﷺ :

(اذا بلغكم عن رجل حسن حال فانظروا في حسن عقله فانما يجازي بعقله) (٢).

وقال ﷺ : (ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل ، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل واقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل ، ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل العقل ويكون عقله أفضل من جميع عقول امته ، وما يضمم النبي في نفسه افضل من اجتهد

١ — يس ، الآية ٧٧ — ٧٩ .

٢ — الحديث ٩ : كتاب العقل من اصول الكافي.

المتجهدين ، وما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه ، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل ، والعقلاء هم أولو الأبواب الذين قال الله تعالى وما يتذكر إلا أولو الأبواب (١).

ان الله غني متعال لا ينظر الى العمل لكثرة ولا يرتضيه لتنسيق ، بل ينظر الى ما يوجبه ذلك العمل لنفس العامل من زكاة وما يتركه في قلبه من إشراق ، وانما يدرك ذلك بالاخلاص ، وانما يدرك ذلك بالمعرفة الكاملة الواعية ، وانما يدرك ذلك بالعقل اليقظ المستنير الذي لم يقسم الله للعباد شيئاً أفضل منه.

والالباء من الناس المتبعون رشد عقولهم السائرون على هداها المميزون بين ما يحسن من الأمور ومن الاعمال والصفات فيأخذون به. وما يقبح منها فيجتنبونه ويأنفون منه ، فاذا تعارضت الاقوال لديهم فحسوها فحس النقيذ الخبير فأخذوا بأوفاهها هدى واكثرها سدادا ، هؤلاء هم العباد الحريون بتوفيق الله وهداه الجديرون منه بالبشرى في الحياة الدنيا والغبطة والنعيم في الدار الآخرة.

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَبَابِ﴾ (٢).

وهم الحقيقون بصفة الانسانية في نسقها الأعلى ، وهم الاحياء بمعنى الحياة المحدي.

١ — الحديث ١١ : كتاب العقل من اصول الكافي.

٢ — الزمر ١٧ — ١٨.

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ ^(١).

أما الآخرون الذين يرتكسون في حمأة الجهل الى آذاهم ويتكسبون في بؤرته على رؤوسهم ، ولا يستجيبون لدعوة الحق ، ولا يصيحون لنصح العقل ، اما هؤلاء فليسوا من الانسانية في شيء وان اشبهوا الاناسيين في السمات والحقوا بهم في العداد.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ^(٢).

والعجاوات إنما خلقت لتأكل وتشرب وتنمو وتلد ثم لتُسرح وتُركب أو تذبح وتؤكل ، وحواسها وغرائزها المودعة فيها تدرجها في هذا الطريق وتوفي بها على الغاية ، اما ابن آدم فقد خلق لتكليف اخرى في هذه الحياة.

والدواب البشرية تترك سبيلها الذي طرّقه لها الطبيعة واعدتها له الحكمة ، وتهرع مع البهائم زاعمة أن سبيلها هو الرشيد. نعم وتكب تهتدي بهديها وتأتي مثل اعمالها وقد عرف الاستعمار ماتتظر هذه المخلوقات فأعد البرذعة وشحد السكين.

إن الحواس في ابن آدم نوافذ يتصل منها نور الحياة بنور العقل وترتبط حركات الكون بحركات الفكر ، فاذا لم يؤد الانسان بحواسه هذه الوظيفة فقد سد على عقله منافذ النور وعطل حواسه عن الانتفاع.

وما كان الانسان ليملك أن يوصد هذه الابواب لو ان عقله كان حرّ

١ — الأنعام ، الآية ١٢٢ .

٢ — الأنفال ، الآية ٢٢ .

الحركة منطلق النشاط ، إن تجميد الحركة فيها يعني تجميد حركة الفكر واطفاء شعلته وإخماد نشاطه ، ثم لامعدى للخابط من أن يرد نهايته المحتومة وأن يجني ثمرته المعلومة.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ ^(١) لجهنم ... للظاهرة العظمى من غضب الله ... للعاقبة السوأى التي لا عاقبة أسوأ منها لهذه النهاية الكالحة المرعبة المخيفة خلق هذا الهباء من الجن والانس. ولم تكن هذه عقباهم لو أنهم أحسنوا الافادة من هبات الله التي آتاهم ، فاعملوا البصيرة وانتهجوا الحق.

وعمى البصيرة أشد وانكى واعظم معرة من عمى البصر.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ^(٢).

وما ضرَّ فاقد البصر أن لا يشهد الأضواء والألوان اذا كانت له بصيرة نفاذة غلى الحقائق ، جواله في المعاني ، غواصة الى التخوم. وما ضرَّ فاقد البصر أن لا يشهد الأضواء والألوان إذا استطاع بفطنته أن يحلل طيف كل ضوء ويحصى أخلاط كل لون ، ويستجلي خصائص كل مرتبة من الاضواء ومميزات كل فصيلة من الألوان ، وما ضرّه أن يكون كذلك إذا كان يسدد القول فلا يخطيء ويقيم البرهان فلا يدحض ويؤسس الفكرة فلا تنقض. وهذا الانسان ليس بأعمى وإن كان فاقد البصر ، فإنها لاتعمى الابصار

١ — الأعراف ، الآية ٧٩.

٢ — الحج ، الآية ٤٦.

ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

والعقل إنما يتبوأ هذه المكانة في دين الإسلام إذا احتفظ بشؤونه بما هو عقل ، ونهض بمهمته بما هو دليل مأمون ، فلم ترغب به اهواء النفس ، ولم تمنح به ميول الغريزة ، ولم يتخبط في معارفه واحكامه على غير علم ولا رشد.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾^(١).

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

والإسلام يأنف للعقل أن يستبهظ تكاليف اليقين فيستريح الى الظنون :
﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^(٣).

ويأنف للعقل أن يصدّه إلف العادات أو ارث الاسلاف عن النظر الحق والفكر المستقيم ، ويندد بأقوام تراكمت على بصائرهم غشاوات كثيفة من نتائج الجمود على موارد اسلافهم وقدم عاداتهم ، فمنعتهم أن يبصروا طريقهم أو يبحثوا عن اعلامه :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(٤).

١ — الحج ، الآية ٨.

٢ — القصص ، الآية ٥٠.

٣ — يونس ، الآية ٣٦.

٤ — البقرة ، الآية ١٧٠.

ضعة بالعقل أن يستأثر به هوى أو تجمّح به غريزة ، وهبوط بعترلته أن يخادعه وهم أو تصرفه عادة أو يستبد به تقليد ، ومعرفة شديدة ان ينقلب جهلاً أعمى ينكر ما يحس ، أو صدى فارغاً يردد ما يسمع.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّكُمْ عَمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(١).

كل هذه مهأو ومزالق على العقل أن يتوقاها اذا أراد أن يسمو ، وعلى العاقل أن يجتري من التردّي فيها اذا طمع أن يرتقي ، وان يبلغ الغاية التي من اجلها خلق ، ومن اجلها بدأت الحياة.

وركيّزة العقل الاولى في حكمه على الحوادث واستنتاجه للحقائق هي الضرورة ، هي القضايا التي يضطر الانسان بطبيعته الى الحكم بصدقها دون حاجة الى مزيد فكر دون حاجة الى طلب دليل. وسنده الثاني هو البرهان اليقيني القويم ، البرهان الذي يقوم على الضرورة وينتهي اليها. ومتى اعتمد العقل في أحكامه على هاتين الدعامتين استحال عليه أن تضطرب له قدم أو تخف به كفه.

ومن الناس من يحصر وسائل العقل الى المعرفة بالحس والتجربة فلا وسيلة له الى تصور المفردات إلا الحس ، ولا سبيل له الى العلم بأحكامها وأوصافها سوى التجربة.

وهكذا انحصرت المعارف البشرية لديهم — لانحصار أسبابها — بالمادة وما يتبع المادة.

وهكذا راموا أن يجدوا تفسير مادياً محسوساً لكل مفهوم من المفاهيم ولكل حكم من الاحكام.

وانجر المتطرفون منهم فانكروا وجود ماسوى المادة لأنه لا يدرك بالحس ولا تناله التجربة.

وسواء أكان حصر وسائل المعرفة هو الذي أدى بهم الى انكار غير المادة أم كان إنكار ما وراء المادة هو الذي انتهى بهم الى الحصر ، فانه غلو لا مبرر له ، وما أكثر المعاني التي يتصورها الذهن بعيداً عن الحس ، وما أكثر المعاني التي يولدها مما يدركه بالحس ، وما اوفر القضايا التي يحكم عليها بالثبوت أو بالنفي ولا تنالها التجربة.

ومعاني ما وراء المادة لاتناله الحواس وهؤلاء أنفسهم لا يجحدون تصورهما في الذهن وانما ينكرون تحققها في الوجود ، ثم هم يحكمون عليها بأحكام كثيرة متنوعة لا تبلغها التجربة ، وقد تحدثنا عن ذلك أكثر من مرة وللموضوع كتب اخرى تستوفي الحديث عن هذه الالهواء.

القضايا التي يضطر الانسان بطبيعته الى الحكم بصدقها دون حاجة الى فكر ودون حاجة الى دليل ، والبرهان اليقيني القائم على هذه الضروريات والمنتهي اليها ، هاتان هما ركيزتا العقل في حكمه على الحوادث واستنتاجه للحقائق.

على ان المعلومات الاولى التي يمتلكها العقل ، والبرهان الذي يستند اليه في المعرفة النظرية لا يملك ان يبدأ للعقل كل مستور وأن ينيرا له كل سبيل ، فمن الحقائق ما يستدق على الفطرة ولا تناله الضرورة ، واذا خفي على الفطرة والضرورة فقد خفي على البرهان ، ومن الحقائق ما يتعارض فيه

٢٣٠ الإسلام

الوجه ويلتبس فيه الحكم ، ومن الحقائق ما يتعرفه العقل بوجه غير صحيح. فيحكم عليه بحكم غير مطابق. فالعقل مفتقر اذن الى ركيزة ثالثة تبين له ما تعي عنه وسائله ، وما ترتبك فيه موازينه ، وهذه الركيزة هي وحي الله خالق الفطرة وبارئ العقل الى انبيائه المصطفين الذين تصدقهم الفطرة ويؤمن بهم العقل :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾^(١).

* * *

في أعماق الأعماق من نفس الانسان يوجد الدليل الأول على الله بل والدليل الأول على توحيده وتزويده والحافز الذاتي للانسان على التوجه اليه.

في أعماق الاعماق من نفس هذا المخلوق المفكر ، حتى لو أطبق عينيه عن عجائب الكون ، وصرف فكره عن التأمل فيها والتدبر في قوانينها. في فطرته حين يدع لها الحكم ويسند اليها الرأي.

في فقره الذاتي وهو يشير الى غني مطلق يأمل منه الغنى ، وفي نقصه الطبيعي وهو يتوجه الى كامل أعلى يرجو منه الكمال ، وفي ضعفه الشديد وهو يتعلق بقوي غالب يستمد منه القوة ، وفي عجزه المتناهي وهو يلجأ الى قادر قاهر يبتغي منه القدرة والنصرة. وبكلمة جامعة في قصوره الذاتي من كل ناحية وهو يتوجه الى قوة عليا كاملة من كل ناحية ، متعالية عن

الحدود ، مرتفعة عن الحاجة تفض الخير وتكفي السوء.

بلى وكل انسان له ساعات لا يخادع فيها نفسه أو هو لا يستطيع أن يخادعها ، ساعات تتعرى له فيها الحقائق فيؤمن انه لا يملك شيئاً مما في يديه ، وان يك أغنى الأغنياء أو أقوى الأقوياء في مقاييس الناس.

وتستلفته نعمٌ عظيمة تحوطه من شتى نواحيه ، ظاهرة وباطنة ، نعمٌ لا يحصيها عدداً ، ولا يملك لها وصفاً ، ولا يفي بها شكراً ، فيوقن بفطرته كذلك أن هذه الأيادي جمعاء صنيع تلك القوة العظمى التي لجأ اليها عند ضعفه وتعلق بها عند خوفه.

ويمتد بصره الى ما يكتنفه من أحياء وأشياء فتقول له بداهته : هذه آثار لها مؤثر. وتقول له فطرته : موجد هذه المكونات هو تلك القدرة الغالبة التي لا ينتهي بها حد ، ولا يعجزها شيء. وهكذا يجد الانسان دليل الربوبية ودليل التوحيد مطبوعين في ركائز شعوره. فاذا ركن الى العقل الواعي ليفصل له ما اجملته الفطرة وحده يقول : خالق الكون يجب أن يكون كاملاً لأنه يهب الكمال لخلقه ، وواهب الكمال لا يكون ناقصاً. وخالق الكون يجب أن يكون غير متناهي الحدود في كماله. لأنه لو تناهى كماله لافتقر الى المزيد ، وهذا يعني أنه مفتقر الى العلة فلا يكون إلهاً.

والنتيجة اللازمة المحتومة لذلك أن إله الكون لن يكون إلا واحداً لأن الالهين والالهة الكثر لا محيد من أن يختص كل واحد منهم بحصة من الكمال لا تكون لشركائه ، فان هذا هو المعنى المفهوم للتعدد. وهذا يعني أن كل واحد منهم متناهي الحدود في كماله. فلا يكون الهاً ولا خالقاً.

فاذا رجع الى المنطق يتعرف حكمه في ذلك وجد البراهين النيرة متوافرة متضافرة عليه.

والعلم ؟ ماذا يؤمل منه أن يقول بعد أن لمس الوحدة الكونية في كل خطوة خطاها ، وفي كل ظاهرة أو خفية كشفها ؟.

ماذا يؤمل من العلم أن يقول ؟. لقد اعترف بوحدة الكون ، أفلا تكون هذه دليلاً على وحدة المكون ؟.

وهكذا تتآزر فطرة الانسان الخاصة ، وفطرة الكون العامة ، وفطرة كل شيء من أشيائه وكل جزء من اجزائه على إثبات هذه الحقيقة وتحليلتها للفكر الواعي ، حتى اذا جاء دور الدين ، دور وحي الله الى انبيائه المطهرين لم يبق له في مجال هذه العقيدة غير تبين حدودها ورسم ابعادها ، وتوضيح لوازمها وآثارها. وغير هذا حفز الفطرة لتنبه من سنة ، وتوجيه العقل ليعرف طرق البرهان.

ولا ادعي عصمة الانسان في هذا المجال ، وأن التوفيق حالفه فيه أنى سار وأننى توجه ، فكيف اذن ألد من ألد ؟ وعلام أشرك من أشرك ؟. ولكنني أقول : هذا هو الطريق اللاحب الذي أعده التكوين لتجلية هذه العقيدة ، وهذا هو سبيلها المستقيم الذي اهتدى بإتباعه من اهتدى وضل عنه من ضل. وقد تحدثنا في أول الكتاب عن المؤثرات التي تنحرف بالفطرة ، والمعوقات التي تعترض الفكر.

وفي أعماق الأعماق من تأريخ الانسان توجد آثار هذه الفطرة ، وتلمح ظلال هذه الفكرة ، آثار الفطرة السليمة التي أرشدت الانسان الى التوحيد ، والعقل المؤمن الذي أوضح له فكرة الألوهية وان وجدت معها

في ظلال العقيدة ٢٣٣
كذلك آثار الفطرة الملتوية. أو بالاحرى آثار الانسان الذي التوى عن
الفطرة ، وصدق عن هداها.

وهذه حقيقة لايمتري فيها علماء التأريخ ولا علماء الآثار. فالتوحيد
الخالص والشرك الصريح والاحاد المرتاب وجدت جنباً الى جنب في جميع
عصور التاريخ ، وحالها في الازمان الغابرة كما هي في الأزمان الحاضرة سواء
بسواء. ومواقف دعاة التوحيد من المشركين والملحدين معروفة مشهورة في
جميع الأدوار. بل والحقيقة التي تثبتتها الحجج القاطعة ان التوحيد سابق على
الوثنية في النشأة.

وتتشهى فئة من الناس أن تحكم أهواءها في التأريخ لتحكم أهواءها في
هذه العقيدة ، ثم في فكرة الدين !!.

لتقول : ان الله وهم أنتجه الخيال الاسطوري للانسان ، وان الدين والنظم
الأخلاقية وتعايير الشرف والاستقامة قيود صاغها السادة للعبيد !!.
تشهى هذه الفئة أن تبتدع لعقيدة الالوهية تأريخاً لايعرفه
التأريخ.

تقول : إن هذه العقيدة نشأت عند الانسان القديم من فكرة بسيطة من
طريق تشخيص القوى الطبيعية. ثم مرت مع الأزمان تنمو وتربو وتتطور
وتتطور ، حتى بلغت الذروة في عقيدة التوحيد. ونشأت معها كذلك فكرة
الدين ، وتطورت بتطورها ونضجت بنضوجها في الأديان التوحيدية. واذن
فالالهة وهم اخترعه الخيال وعمل فيه التطور. والدين خرافة وضعها السادة
ليقيدوا بها العبید. وقرأ ان شئت قول (فردريك انجلز) في كتابه لودفيج فيور
بارخ :

(ولم تكن الحاجة الى العزاء الديني هي التي أدت الى نشوء الوهم الممل عن الخلود الشخصي ، بل هي الحيرة القاسية التي نجمت عن الجهل العمومي المشترك بما ينبغي فعله مع هذه النفس — اذا ما قبلت فكرة بقائها حيّة — بعد موت الجسم وفنائه. وهكذا نشأت الالهة الأولى أيضاً بطريق تشخيص القوى الطبيعية ، ثم اتخذت — خلال تطور الدين اللاحق — صورة تخرج اكثر فاكثر عن نطاق العالم الأرضي الى أن ولدت هذه الالهة العديدة ، وهي ذات سلطة ضيقة على درجات متفاوتة ، وسلطة كل منها تحد من سلطة الالهة الأخرى — خلال عملية طبيعة من التجريد — كدت أقول من التقطير — أقول ولدت في عقول الناس مفهوم الاله الواحد المتفرد الذي بشرت به الأديان التوحيدية ^(١)).

واقراً أيضاً قول فؤاد ايوب في مقدمة هذا الكتاب : (ان الله نتاج وجدان الانسانية الديني وخيالها الاسطوري ، اما العكس اي ان الوجدان الديني والاسطورة نتاج الوحي الألهي فغير صحيح البتة. وان التاريخ ليثبت ذلك ، فالفكرة أو الصورة اللتان صنعهما المؤمن عن الله قد تبدلتا خلال مراحل المدنية الانسانية ومع تبدل مستوى تطورها الأخلاقي ، هذا التطور الذي لايزيد تاتك الصورة أو الفكرة عن ان يكون انعكاساً له أو اسقاطاً. ذلك ان الانسان يسمو بالصفات والقيم التي تدله المدنية على انها فضائل مرغوبة يستفيد النوع منها والتي لاينجح هو الفرد الفاني الضيق الأفق في الحصول عليها أو تحقيقها بصورة كاملة ، يسمو اذن بتلك الصفات والقيم فيضيفها

في ظلال العقيدة ٢٣٥
على فرد الهي متسام. وهذا يعني أن الصفات الالهية نعوت انسانية لا تخص
الفرد بل تخص الجنس في المجموعه ^(١)).

أقرات ؟

هذه هي دعواهم ... وهذه هي حجتهم ... ! ودليل الهراء لا يكون غير
افتراء.

ويبدو أن نظرية التطور هي التي سافقتهم الى هذا الغرض ثم الى هذا
الاستنتاج.

التطور قانون تخضع له كل الأشياء فلا بد وان تكون عقيدة الألوهية
خاضعة له أيضاً.

وإذن ففكرة الاله قد خضعت للتطور. واذن فقد نشأت في ذهن الانسان
القديم نشأة بسيطة واذن فهي من مخترعات الانسان ومبتدعاته ، وقد
انشأها وطورها وفقاً لدوافعه ... والماركسيون يقولون بتطور الأشياء
وتطور الاراء تطبيقاً لمبدأ النقيض والحركة الديالكتيكية. وقد تعرضنا من
قبل لهذه الأوهام.

ويلاحظ أن انجلز في قوله المتقدم قد عجز أن ينشئ الفكرة الالهية
نشأة اقتصادية وأن يجعلها انعكاس للواقع الاقتصادي على مايراه في
كل فكرة ، وأن يصورها فكرة بورجوازية كما يقول في غير هذا
الوضع.

ثم ماذا ؟

ثم لنفترض ان فكرة الانسان عن الألوهية بدأت كذلك بسيطة ثم تطورت ، فهل يدل هذا على ان الاله وهم ولا حقيقة له؟! وقد كانت للانسان في القرون الأولى فكرة ما عن الشمس والقمر والنجوم وظواهر الكون ، ثم تبدلت الفكرة وتطورت حتى أخذت صورتها التجريبية في القرن العشرين فهل يدل هذا على ان الشمس والقمر والنجوم أوهام ليست لها حقائق؟!.

ولماذا نذكر الشمس والنجوم وظواهر الكون فاكثر المفاهيم التي يتصورها الانسان للأشياء تبدأ هكذا بسيطة ومخطئة ، ثم يمضي الانسان مع الزمان يحك ويجرب وينقد ويمتحن حتى ينتهي المفهوم الى صورته الأخيرة وجميع المفاهيم والأفكار عند هؤلاء الماركسيين خاضعة للتطور. للحركة الديالكتيكية. فهل يدل ذلك على أن الأشياء كلها أوهام وأباطيل؟.

أي منطق هذا المنطق ، وأي اسلوب من الاحتجاج هذا الاسلوب؟؟!

فلنقل — ولا ضير — ان الفطرة دفعت بالانسان الى معرفة ربّه فاندفع الى ذلك منذ قرونه الاولى ، ولكنه اخطأ السبيل وقصر دون الغاية ، ووضع للألوهية فكرة غامضة ، قبس بعض حدودها من محيطه المحدود ، وأكمل سائرهما من فكره البسيط. ثم مضى مع الأزمان يصحح أخطاءه ويتعدى في حدوده. ويعمق في تفكيره ، ويرجع الى ركائز المعرفة من نفسه والى دلائل التوحيد من سواه ، حتى بلغ الغاية التي يستطيعها الانسان في هذا الميدان. وجاءت الأديان التوحيدية السماوية تبارك له جهوده وتسدد له خطواته. لنقل بهذا اذا لم يكن محيد عن تطور الفكرة ، ولم يكن محيد عن تأخر

التوحيد عن الشرك في النشأة.

أما الأديان. أما المناهج العملية التي تقدمها الأديان للاحلاق والتربية والسلوك والاجتماع والمعاملات فلا يحيد من أن تهبط من السماء موافقة لمزلة المجتمع من التطور ، ولا يحيد من أن تترتب شرائعها بحسب تلك الأدوار. وقد تحدثنا عن هذا في بحثنا عن الدين في يناييعه الاولى.

والتوحيد في الإسلام فكرة عامة تتمثل في عقيدة خاصة.

فكرة عامة تقوم على طي الكون كله في وحدة ، وربطه كله في نسق وتأليفه كله على غاية.

الوجود المبسط على هذا المللكوت ، المحيط بكل باد منه ومستور الشامل لكل صغير فيه وكبير ، هذا الوجود من أدناه الى أعلاه ، ومن أقرب مظاهره إلى أبعد تخومه كله ظل واحد لموجد واحد. والقانون العام الذي يسير عليه هذا الوجود المحيط توجيه واحد من مدبر واحد ، والوجهة التي يتولى شطرها غاية واحدة لصانع مختار واحد. أما المادة فهي مظهر من مظاهر هذا الوجود ، واما الطبيعة فهي الطريقة المعينة لسير الوجود في المادة ، وأما الحياة فهي مراقبة من مراقبه ، وأما الانسانية فهي النموذج الأعلى من نماذجه ، وأما كمال الانسانية فهو القمة من التطور فيه.

فالكون والطبيعة والحياة والانسانية مجموعة واحدة نشأت من معدن واحد عن علة واحدة وعلى طريقة واحدة ، ونظم الكون والطبيعة والحياة والانسانية متشابكة لا تنفصل ، وغاياتها متداخلة لا تفترق.

وهذه فكرة الإسلام العامة عن التوحيد العام ، وقرأ إن شئت هذه الآيات

الكريمة :

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنِيتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ * وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (١).

لا اطوف بعيداً فأذكر أسراراً أومأت اليها الآيات ثم كشفها العلم بعد نزولها بقرون. ولكن مع الآيات في دلالتها الواضحة وفي مدلولاتها القريبة.

للانسان ولمنافعه ولحاجاته هيا الله الكون الأعلى وما يظل وأعد الكون الأدنى وما يحمل. هذا ما تقوله الآيات الكريمة. للانسان ولمنافعه ولحاجاته التي تتطلبها حياته ويتطلبها بقاؤه ، وتتطلبها سعادته وهناؤه بل وكرامته في الدنيا وسيادته في الأرض. للترفيه على الانسان في شتى نواحيه كل هذا الإعداد وكل هذا الإرصاء. للانسان لينتفع به في حياته الاولى ، وله لينتفع

في ظلال العقيدة ٢٣٩
به في حياته الاخرى. ليستدل بها على صانعها وعلى وحدته وحكمته
ووجوب طاعته.

وسواء أكان نفع البشرية غاية مقصودة من خلق الكون والطبيعة
والحياة أم كان فائدة مترتبة على وجودها فان في ذلك دلالة عميقة على
التعاون البالغ بين مظاهر الكون وأجزائه وعلى الاشتباك القوي بين قوانينه
وغايته.

وشد العلم ازر هذه الفكرة فأبرز وجوهاً من وحدة الكون ، وابدى
ضروباً من أسانيد هذه الوحدة ومعزاتها ، وهو لا يفتأ يكتشف ويستدل
ولا يخطئه الاكتشاف ولا التدليل.

فهذه الأرض الكدرة هذه الشمس المنيرة وهذه الكواكب السيارة وما
يتبعها من اقمار وما تحتوي عليه من أجرام وأجسام كلها من اصل واحد.
ولقد كانت في بدء أمرها شيئاً واحداً. هكذا يقرر العلم التجريبي الحديث.
وقد قال الله سبحانه في القرآن الكريم :

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا
فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ ^(١).

وشمسنا هذه التي نعيش على ظهر كوكب صغير من كواكبها مع ما في
الجرة من ألوف ملايين الشمس أمثالها ، ومجرتنا هذه التي تحتل الشمس
والكواكب ناحية صغيرة منها مع ما في الفضاء من ملايين المجرات أشكالها ،

كل هذه العوالم الكثيرة المتباعدة في الامكنة متحدة في المادة متسقة في النظم متفقة في الحركة^(١).

١ — يقول علم الفلك الحديث : إن أرضنا هذه التي نحيا ونعيش عليها يبلغ متوسط قطرها سبعة آلاف وتسعمائة وسبعة وعشرين ميلا ، وتبلغ كتلتها خمسة آلاف مليون مليون طن. وهي أعداد كبيرة بل وهائلة اذا قيست الى ما يألفه الانسان من مسافات وأوزان.

ولكن العلم يقول ايضا : وكتلة الأرض هذه التي قدرناها بهذا العدد الضخم لاتزيد على جزء واحد من ثلاثمائة واثنين وثلاثين الف جزء من كتلة الشمس !!. فهي اذن صغيرة جدا إذا قسناها بالشمس ، وكذلك الكواكب السيارة التي تدور حول الشمس. واكبر هذه الكواكب هو المشتري ، وكتلته على ما يقولون اكبر من الأرض ثلاثمائة وسبع عشرة مرة ، ولكنه على ضخامته لا يبلغ جزءاً من الف جزء من كتلة الشمس.

ويقول علم الفلك الحديث : إن أرضنا تبعد عن الشمس بثلاثة وتسعين مليون ميل ، أي بنحو من ثمان دقائق يقطعها الضوء بسرعه العظيمة. وأبعد السيارات عن الشمس هو كوكب (بلوتو) وقد قدروا متوسط بعده بثلاثة الاف وست مئة وسبعين مليون ميل ، أي بنحو من خمس ساعات ونصف = سرعة الضوء وهي أبعاد شاسعة سحيقة لاعهد للانسان بمثلها.

ولكن العلم يقول أيضاً : إن أقرب النجوم اليها لا يصل نوره الى الأرض إلا بعد اربع سنين ضوئية !. ويقول كذلك : إن قطر مجرتنا يبلغ نحواً من مائة الف سنة ضوئية !!. فما يكون قدر مجموعتنا اذن وما قدر أبعادها وابعاد مداراتها اذا قيست بهذه المسافات الهائلة ؟. أليست — كما قلنا — إنما تحتل بقعة صغيرة من هذه الحدود السحيقة ؟.

وكشف العلم أن مجرتنا تحتوي على مائة ألف من ملايين النجوم من ملايين الشمس.

وأن بعض هذه النجوم يكبر شمسنا مئات المرات حجماً ويفوقها مئات المرات بهاءً ولعناً.

وكشف إن في هذا الفضاء الرحب ألوفاً من ملايين الجرات تشتمل الجرة الواحدة منها على ما يناهز هذه الأعداد نجومها ، وتقول مؤلفة كتاب (مع النجوم في تطورها) : « لعلها (وتعني الجرات) تبلغ مئات الملايين ».

ووجد أن الأقمار تتحرك حول نفسها وحول كواكبها ، ووجد أن الكواكب تتحرك حول نفسها وحول الشمس ، وأن الأقمار تتبعها كذلك في هذه الحركة.

ووجد أن الشمس تتحرك حول نفسها وتتحرك نحو (النسر الواقع) ، وأن المجموعة بكواكبها وأقمارها تتحرك بحركة الشمس في ذلك الاتجاه.

ووجد أن الجرة تتحرك حول نفسها كذلك وأن الشمس وتوابعها والبلايين من النجوم التي تملأ أكناف الجرة تتحرك أيضاً بحركتها : !.

ثم وقف ليس يدري ما وراء ذلك. لعل حشد الجرات هذا الذي رآه رأي عين يؤلف مجرة للمجرات ؟!.

لعل لهذا الحشد أمثالا كثيرة في الكون تبلغ الملايين أو مئات الألوف من الملايين ؟!

ولعل هذه الحشود أيضاً تتحرك حول نفسها وحول شيء آخر ؟!.

وقف العلم ليس يدري ، فإن المرقب الذي تمكن من صنعه إلى الآن لم تتجاوز مرآته مئة بوصة أو مئتين. وما يدري ما سيثبت لنا إذا بلغت مرآته المئات أو الألوف من البوصات !!.

إن العلم يسير بانتظام ، ويكشف أن كل ما في الكون يسير على نظام.

ويقفز العلم ويتقدم ، وينمو ويمتد ، ويطرد تقدمه في كل وجه ، ويطرد فوزه في كل تجربة. ويقف الإنسان الكنود الجحود. الإنسان الذي يزعم لنفسه الحصافة والذكاء مذهوشاً مذهولاً ، يسبح بحمد العلم لأنه كشف = = عجيها ، ولا يسبح بحمد الله لأنه خلق عظيماً !!.

يرى في الكشف ما يدل على عظمة الكاشف ، ولا يجد في الخلق ما يستحق أن يدل على وجود الخالق !!.

مئات الوف من ملايين النجوم تسير في مداراتها العظيمة وبسرعتها المدهشة

والحياة الموجودة على هذا الكوكب جزء من نظام الشمس ، لأنها تأتلف من عناصرها وتغتذي من ثمراتها ، وتتقوم بحرارتها وإشعاعها.

والحيوان والنبات صنوان قريان يمد أحدهما الآخر بما يعوزه من العناصر ويرفده بما يفتقر اليه من الحاجات ، والطبيعة أهمها الرؤوم والأرض مهدهما الوثير ومعهدهما المربي وحصنهما المنيع.

ونظام البصر في عين الانسان واعداد طبقاتها وعدساتها وتحديد مجاري الضوء منها وتقدير منافذ الصورة ، كل هذا امتداد لقانون الأشعة التي توجهها الشمس ويمتليء بها الافق وتنتشر على كل مرئي وتنفذ الى كل منظور.

وذرة الرمل الصغيرة مع المنظومة الشمسية الكبيرة شيء واحد فالمعدن فيها هو المعدن والطاقة هي الطاقة والنظام هو النظام.

وهذا الملكوت الواسع بمحارته الهائلة وعوالمه الكبيرة الكثيرة وأجرامه الفخمة الضخمة وما لها من توابع وظلال ومن انظمة وحركات كله يذعن لقانون عام واحد يقيه التصادم ويمنعه عن التخلف والاضطراب ويدفع به الى التناسق والانسجام.

ثم لا يصطدم بعضها ببعض ولا يقترب بعضها من بعض. والوف من ملايين المجرات تتحرك طول الدهر ولا تقلد حركتها ولا تخف سرعتها ثم لا يخرج شيء منها ولا من نجومها عن سبيله ولا ينفرط عن نظامه.

يرى الانسان ذلك كله ولا يشك فيه ، ثم لا يدله هذا القانون على واضع ولا يرشده هذا التدبير الى مدبر !!.

انه افتراء على العقل وخروج على حكمه.

من صميم هذا القانون العام الواحد ينشعب قانون كل موجود ، وكل جزء من كل كائن ، وكل خلية من كل جزء وكل ذرة من كل خلية نوية وحسيم من كل ذرة ، والى الغاية الكبرى المحيطة ترد كل غاية جزئية لأي كائن جزئي.

وعلى هذه الفكرة الجامعة يجب أن تقوم فكرة الدين ونظرة الاجتماع وفلسفة الخلق ومنهج التربية ونظام الاقتصاد وقانون السياسة والحكم وعلى هذا الأساس يجب أن ترتكز كل نظرة تبحث عن الانسان الفرد أو الانسان الأمة ، وكل تشريع يعد للانسان الفرد أو للانسان الأمة.

هذه الفكرة الإسلام الجامعة عن التوحيد وهي التي أثبت العلم كل مقطع من مقاطعها ، وأكد العقل كل منحى من مناحيها.

وفي ضوء هذه الفكرة فالبشرية جماعة واحدة ذات اتجاه واحد ويتحتم أن يظللها دين واحد ، وأن تدعن كذلك لحكومة واحدة يرأسها إمام واحد.

والمسلمون أخوة أشقاء يصل بينهم نسب البشرية ولحمة العقيدة ورحم الدين ، والمسلمون أولياء على تنفيذ هذه الخطة وتحقيق هذه الفكرة يرشدون من يجهلها بالحسنى ويقومون من يزيغ عنها بالحجة ويخضعون من يكيدها بالقوة.

أما من لا يشاء أن يقتنع ولا يحاول أن يكيده فهو وإن نشز عن الوحدة التي يفرضها الإسلام ، وعن الفكرة الجامعة التي يجتمعها قانون التكوين ، إلا ان دين الإسلام يقرر له حرية المعتقد ، وحرية العبادة ، وحرية العمل ، والمساواة الكاملة أمام العدل ، والكرامة الموفرة في الحياة. وله على حكومة الإسلام أن تصون له هذه الحقوق ، وأن تقي له بهذه الضمانات.

يقرر الإسلام له هذه الحقوق ويضمن له هذه الحريات وينجز له هذه الضمانات مادام لا يريد به كيداً ولا يقف له في وجهه.

مادام لا يريد كيداً بالإسلام بما هو دين ، ولا يبدي له خلافاً بما هو دولة ولا يتربص به الدوائر بما هو وحدة ، ولا يبتغي الفتنة بأهله ولا الصد عن سبيله. فهذه جهات لا يتسامح فيها الإسلام ، ويتناقض مع نفسه لو تسامح فيها.

وعقيدة التوحيد عميقة الأثر ضاربة الجذور في خلق المسلم وفي بناء شخصيته وتقويم طباعة وتركيب أعماله.

فهي تطوي جميع آماله في أمل ، وتوحد كل صلاته في صلة ، وتؤلف عامة أهدافه في هدف ، فأمال المسلم الحق وروابطه وغاياته كلها محصورة في الله ربه الذي يخلص له في السرّ ويعبده في العلانية ويدعوه لكل نازلة ويلجأ إليه عند كل مهمة ، في الله الذي بيده مساك الموت والحياة ، وتدبيره ملاك القبض والبسط ، وبأمره تقدير النفع والضرر. في الله الذي يأمله الآمل فلا يخيب ويلجأ إليه اللاجيء فلا يذل ، ويتوجه إليه القاصد فلا يشقى.

تتوحد آمال المسلم كلها في أمل ، وتنطوي صلاته بأجمعها في صلة وتندمج غاياته بأسرها في غاية ، ثم يشع أمله ذلك الواحد على كل أمر له في الحياة فيزدهر ، وتمتد تلك كل صلة له في الدنيا فتركو. وتتصل غايته بكل غاية له في الكون فتعظم.

يوقن المسلم بان الله وحده المعبود الحق ، وان بيده وحده مقاليد الأمور ، وإليه وحده مصائر الأشياء فهو الاله الذي لا يُعبد غيره ، والربّ

الذي لا يملك التقدير سواه. وهو الملك الفرد فلا ترجى إلا رحمته ، ولا تخشى إلا نعمته. ولذلك فالمسلم لا يضرع ولا يتصنع لكائن سوى الله ولا يستعين ولا يرجو موجوداً غيره ، ولا يحايي ولا يتملق ولا ينافق ولا يراي.

ولم يفعل ذلك وهو يعلم أن من سوى الله عبد خاضع لن يملك لنفسه نفعاً ، ولن يدفع عنها ضرراً ، عبد خاضع خاشع رضي العبودية أم أباه؟ فالمسلم رفيع النفس ، عزيز الجانب ، خفيف المؤونة ، صريح الكلمة.

ويوقن المسلم بأن لك ما في الكون من القوى وكل ما بيد المخلوقين كافة من الحلول فهو في قبضة الله وتحت سلطانه ، ينفذ فيه حكمة وتتصرف فيه إرادته. والله مقدر الآجال ومسبب الأسباب ، ثم لن تستطيع أية قوة في العالم نقض ما أبرم أو تأخير ما قدم. ولذلك فالمسلم لا يهرب إلا الله. ولا يحذر إلا بطشه ولا يخشى إلا غضبه.

وكيف يخاف أحداً غير الله وهو يعلم أنه ضعيف الحول إلا حين ينتصر بالله ، واهن الكيد إلا حين يستعين به ، معدوم القوة إلا حين يلتجئ إليه ؟ فالمسلم ثابت العزيمة قوي النفس بعيد المهمة.

ويوقن المسلم بأن كل ما في السماوات وما في الأرض من متحرك وساكن ، ومن صغير وكبير ، ومن حي وجامد وكل ما بيد الإنسان من مال وثروة وما يعتز به من مجد وسطة فهو ملك خالص لله الغني الذي لا منتهى لغناه ، الوهاب الذي لا حصر لجوده ، القادر الذي لا أحد لسلطانه ولا أمد لقدرته ، ولذلك فالمسلم لا يزدهي بثروته ولا يستطيع بقوة ولا يحسد على نعمة ، ولا ييأس من رحمة ، ثم هو لا يظلم ولا يحيف ولا يتكبر.

ولم يصنع ذلك وهو يعلم أن كل ما في يده أو في يد غيره فهو لله الجواد

الذي لا يخل ، العدل الذي لا يظلم ، العزيز الذي يهب النعمة أنى شاء بقدرته ، ويسلبها أنى شاء بحكمته ؟ فالمسلم عف الضمير ، نقي السرّ ، طاهر العلانية ، موصل الأمل بالله شديد الثقة بتدبيره .

وهذه الدرجة من التوكل لن تقعد بالمسلم عن خوض غمار الحياة ولن تقصر به في شيء من مجالاتها . فقد أهتمته الفطرة السليمة أن لكل أمر مدخلا ، وقد لقنه الإسلام أن لكل شيء سبباً ، ولا عذر له من أن يلتمس رزق الله من سبله التي يسرها ومن موارده التي قدرها ، ولكن المسلم من أجل هذا اليقين الذي يفعم قلبه ويملأ جوانحه هاديء النفس حين يعمل ، قوي الطمأنينة حين يكسب ، ثابت الجنان حين يخفق ، متزن المشاعر والاعمال حين يستغني وحين يفتقر وهو من أجل هذا اليقين الذي يفعم قلبه ويملأ جوانحه معافى من العقد التي تخشو نفوس الآخرين والاضطرابات التي تظلم آفاقهم وتسعر حياتهم .

والمسلم يرحو من كسبه سد العوز في دنياه ونيل المثوبة في آخرته فقد علم من بدائه دينه أن الكسب الحلال الطيب قرينة كبيرة يتعبد بفعلها الى ربه ، ويتطلب بها رضاه ويتغني بها الزلفة لديه . فهو يسعى في الحياة بأملين ويكده بحافزين ، ولذلك فهو أقوى جلدأ وأرهف عزيمة وادنى الى الفلاح وارجى للغاية من الكادحين الآخرين .

والمسلم يعلم ان في الفقر مهانة لاتتفق وعزّ الإسلام ، وضعة لانسجم والكرامة التي يتغنيها للمسلم ، وضعفأ لا يقوم للوظائف التي ينيطها به ، فهو يكافح هذا الخصم ما وجد الى كفاحه سبيلا . وهو كذلك يتقرب الى الله بمنجزته ويستمد منه العون عليه ويتبع هداه في خوض غمارها .

ويوقن المسلم بأن الله مطلع فلا تخفى عليه خاطرة نفس ، عليم فلا تغيب عنه خالجة قلب ، محيط فلا يضل عنه مثقال حبة ولا مقدار ذرة ، ثم هو حاكم لا يجوز عدله ظلم ، جبار لا يقوم لغضبه شيء ، قاهر لا يفوت قدرته حي ، ولذلك فالمسلم لا يعصي الله في سر ولا يتعرض لمقتته في علانية ، ولا يتباطأ عن حق ولا يتسامح في حدّ.

وأنى يجزؤ على شيء من ذلك وهو يعلم أن الله شديد الأخذ على الجريمة ، أليم البطش على انتهاك الحدود ، فالمسلم مأمون العثار صادق اللهجة زكي الروح ، محمود السلوك.

ويوقن المسلم بأن الله الذي فرض عليه الايمان وحببه اليه وزينة في قلبه قد ربط بينه وبين سائر المؤمنين بالأخوة ، وسوّى بينه وبين عامة البشر في الحقوق وأوجب عليه النصرة لكل مسلم إذا ظلم ، وفرض عليه النصيحة لكل بشر اذا جهل والهداية لكل جاهل إذا ضل. ولذلك فالمسلم نزيه الطوية عن الحقد رفيع الهمة عن الخداع مجبول الطبيعة على الاحسان. والمسلم عون الله للضعيف ، ودعوة الله الى الخير ، وقيم الله على إقامة الحق وافشاء العدل واناة السبيل وايضاح الدليل.

ويوقن المسلم بأنه حين يؤمن بالله ويحكم صلته به وحين يمتليء بهذا الايمان عقله ونفسه وقلبه وجوارحه فانما يصل عقله ونفسه وقلبه وجوارحه بالقوة التي لن تضعف ، وبالعظمة التي لن ترام والعزة التي لن تضام ، والقدرة التي لن يمتنع منها شيء وبالنور الذي لن يطفأ ، والعلم الذي لن يجهل. ولذلك فالمسلم لا يعرف الجبن في موقف ولا يناله الخوف من حادث ولا يدركه الصغار في مقام ، ولا يقيم على ضيم ولا يخلد الى مهانة ،

والمسلم مشرق الروح نير العقل والقلب ، يستمد صنوف كماله من أعماق نفسه. من صلته الوثقى التي ملأت آفاقه وملأت حياته. من هذا السلك الذي يشده بمصدر كل كمال وينبوع كل خير وجمال. من صلته العظمى برّبه.

كذا تنفذ أشعة التوحيد في أعماق الفرد المسلم وتضيء آفاقه وتوقظ ضميره وتبني شخصيته ، وتوجه إرادته ومشاعره وتحكم أشواقه ورغباته. فلا يعثر ولا يتردد ، ولا ينكب عن سبيل الهدى ولا ينكفيء دون الغاية ، ولا يتهرب من واقع ، ولا يلتوي في قصد.

ثم تنفذ في أعماق المجتمع المسلم وتظهر صلاته وتضبط حدوده ، فلا بخس لحق ولا خسر لميزان ولا أثرة ولا تحاسد ولا تباغي ولا نفاق ولا مدهانة ، ولا إغضاء على ظلم ، ولا حيف في حكم ولا استبداد من راع ولا التواء من رعية.

ان الإسلام بشرائعه ومعارفه وهداياته وآدابه ومفصلات نظمه ومبسطات مناهجه يتجمع وينطوي وتتداخل حدوده ، وتندمج تعاليمه ، حتى يكون وحدة لاتعدد فيها من وجه ، هي عقيدة التوحيد التي يدين بها المسلم لبارئه ، ويخضع من أجلها لقوله.

فالإسلام هو التوحيد مجلو القسامات مبين الظلال والسمات.

وهذه هي الحقيقة الرائعة التي قررها داعية الإسلام الأول لما قال كلمته الأولى : (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) لما ضمن للناس الفلاح أن يقولوا هذه الكلمة ويؤمنوا بهذه العقيدة.

أما تزيه الله عما لا يليق بجلاله من الصفات ، وتقديسه عما ينافي

في ظلال العقيدة ٢٤٩
حكيمته من الأفعال.

أما هذه العقيدة فهي من شعب التوحيد الخالص والغني الذاتي المطلق.
فما كان للعقل المستنير أن يؤمن بأن الله وحده واهب كل كمال في هذا
الوجود ومصدر كل غنى ومؤتي كل رحمة ، ثم يرتاب بعد ذلك أو يزعم أن
هذا الوهاب ليس جامعاً لصنوف الكمال ، أو ليس متفرداً بضروب الغنى.
ما كان للعقل أن يقول بهذا بعد أن آمن بذلك فان من دأبه الأشياء أن من
لا يملك شيئاً لا يعطيه.

وما كان للعقل المستنير أن يعترف بأن الله وحده واهب الكمال لكل
كامل ومانح الرفعة لكل رفيع ومؤتي العظمة لكل عظيم ، ثم يبتغي بعد ذلك
أن يجد لله شبيهاً من خلقه ومضارعاً له في نعوته. ما كان للعقل أن يبتغي هذا
بعد أن اعترف بذلك فما شباهاة مفتقر في وجوده محدود في كماله بغنى غير
ممتناه ولا محدود ؟

وما كان للعقل المستنير أن يعترف أن يقول : باريء الكون مستغن بذاته
عن كل شيء ، ثم يقول بعد ذلك ، له صفات هي غير ذاته يستجمع بها
ضروب الكمال. ما كان للعقل ان يقول بهذا متى أيقن بذلك لأنه تناقض
صريح سواء أكانت الصفات التي يعينها قديمة أم حادثة ، وسواء أكانت واجبة
أم ممكنة ، مادامت زائدة على ذاته.(على حد تعبير علماء الكلام) وما دامت
تعني أن الذات استكملت بها من نقص وأفادت بها من عدم.

وما كان للعقل المستنير أن يقول : واجب الوجود واحد يستحيل عليه
أن يتعدد ، أحد يمتنع عليه أن يتركب. ثم يقول : ولباريء الكون صفات غير
ذاته هي كذلك واجبة الوجود. ما كان للعقل أن يقول بهذا متى اعترف

٢٥٠ الإسلام

بذلك. فإنّ وحدة واجب الوجود تمنع أن يكون متعدداً ، وبساطته تحيل أن يكون مركباً. أما اذا ادعى أن الصفات ممكنة فانه يكون أشد إحالة ووضح منعاً.

وما كان للعقل المستنير أن يقول : مبدع العالم حكيم لامتتهى لحكمته وغني لا حدّ لغناه ، ثم يقول : وهو الذي يقتاد العباد الى عمل الطاعة إذ يطيعون ، ويقتسرهم على ارتكاب المعصية اذ يعصون. يفعل ذلك بهم ثم يأخذهم بتبعات اعمالهم ويزل بهم العقوبات على مخالفاتهم. ما كان للعقل أن يقول بهذا متى اقر بذلك لأنه تناقض بينّ.

والبحث عن حقائق صفات الله سبحانه كالبحث عن كنه ذاته كلاهما مما يستعصي على العقل أن يخوض فيه ، فان للعقل آفاقاً محدودة من المعرفة ليس في طرقه أن يجوزها ، ولمعرفته وسائل معينة ليس في مكتته أن يتعدها.

ولن تزال أمام الانسان اعداد هائلة من المحسوسات لم يستكنه حقائقها بعد ولعله لن يستطيع ذلك أبداً.

ما حقيقة هذه الحياة التي ينعم بها الأحياء؟.

وما كنه هذا الوجود الذي تستبين به الأشياء؟.

بل وما جوهر هذا العقل الذي يطمع ان يكتشف؟.

وما هذه النفس التي ترغب (في) أن تكتمل؟.

هذه امور قريية قريية جداً من الانسان إلا انها بعيدة بعيدة جداً عن

ادراكه فكلها ألغاز لم يكتشفها العقل بعد ولعله لن يستطيع كشفها ابداً.

وإذا اعى على العقل ان يستجلي هذه الحقائق — على انها قريية منه بل

في ظلال العقيدة ٢٥١
ومندمجة في حدوده فكيف يطمع ان يدرك حقيقة واجب الوجود أو أن
يحيط بكنه صفاته ؟.

انها محاولة مستحيلة ما في ذلك شك.

ولكننا اذا أحلنا هذا على العقل الانساني لأنه لا يملك الوسائل التي تبلغه
اليه ، أفنحيل عليه كذلك ان يدرك ان الواحد لا يمكن ان يكون متعددًا ، وأن
اليسيط لا يسوغ ان يكون مركبًا ، وأن الكامل لا يجوز أن يكون ناقصًا ، وان
الاله الحكيم العادل لا يعقل ان يكون ظالمًا ؟. أنحيل عليه ان يدرك ان
الموجود اذا وجبت له صفة معينة امتنع عليه ان يتصف بضدها ؟.

ان هذه أمور تدخل في حدود البدهة فليست تخفى على عقل ولا يسعه
أن يرتاب في واحد منها ، وهي بذاتها عين النتائج التي تحدثنا عنها.

باريء الكون غني بذاته عن كل شيء ، ولا حد ولا أمد لغناه ، فكل
ما يغمر جهات العوالم من خير وبركة ، وما يملأ رحال الآفاق من عناصر
وقوى ، وما يزخر به واسع الفضاء من أفلاك وأجرام ، وما يزحم مناكب
الأرض من حيّ وجامد ، وما يسد فروعها من معادن وخزائن فهو فيض
من غناه ويسط من جوده ، ثم لو قدرنا الفناء على جميع هذه المكونات لم
ينقص من غنائه مثقال ذرة ، ولو أضيفت اليها أضعافها وأضعافها لم يزد ذلك
في ملكوته قيد شعرة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ
يُدْهِمَكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ ^(١).

أجل. كل ما يزخر به هذا الملكوت العظيم فهو في قبضته ، وفناؤه وبقاؤه بمشيئته ، فهل هذا هو معنى غناه الذاتي ؟

قد يكون هذا مظهرًا من مظاهر الغنى الإلهي ، ولكنه لا يصلح أن يكون تفسيراً له.

وباري الكون يمنح الوجود والحياة ، والقوة والسعة ، والكمال والدعة ، والرفعة والسيادة ، والهناء والغبطة ، وما يصبو اليه الانسان في وجوده وما يتطلبه لبقائه وما يكسح للسيطرة عليه لسعادته ، وما يفتقر اليه غير الانسان من الاحياء والأشياء ، لا لنفع يرتجعه من هذه المنح ، ولا لجزاء يأمله كفاء هذه الهبات ، وإنما هو محض الاحسان وسجية التفضل ، وهو يفرض على الخلق أن يؤمنوا به ويكلفهم بأن يطيعوه ويلزمهم بأن يتبعوا دينه ويستمسكوا بشريعته لا لمتزلة يروجوها من إيمانهم ، ولا لرغبة يبلغها في عبادتهم ، وإنما هي دلالة لهم على وظيفة العبودية وأخذ بأيديهم الى منهج السعادة ، ثم لو كفر هؤلاء العبيد كلهم بنعمته وجحدوا بربوبيته لم تتزع بذلك له متزلة ولم يتدخل له سلطان ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾^(١).

فهل هذا هو معنى غناه الذاتي ؟

قد يكون هذا مظهرًا من مظاهر الغنى الإلهي ، ولكنه لا يصلح أن يكون تفسيراً له.

باريء الكون غني في وجوده وفي كل نعت من نعوت كماله عن العلة ،

في ظلال العقيدة ٢٥٣

وغني في صنعه وفي كل مجلى من مجالي قدرته عن الظهير ، وغني في تدبيره وفي كل ظاهرة من ظواهر حكمته عن المشير ، ثم هو متزه في ذاته وفي كل شأن من شؤون عظمته عن الحاجة ، ومترفع في غناه وفي كل معنى من معاني جلالته عن التحديد.

وإذا تزه عن الافتقار والحد والتعليل في كل معنى من معاني الكمال فهو عن العبث والظلم أشد تزهاً وأعظم تعالياً.

هذا هو المعنى الظاهر للغنى الالهي أو هو اللازم القريب من لوازمه.

فاذا أيقن المسلم لربه بهذا الغنى واذا آمن له بهذا التزیه ، فهل يستطيع أن يؤمن أيضاً بأنه يستكمل بصفته أو يمتدح بعبث أو يستطيل بظلم ؟.

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وتعالى المسلم أن يدين لربه بهذه العقيدة.

وتعالت عقيدة التوحيد في الإسلام عن مثل هذا الاسفاف وهذا الالتواء.

وفكرة الجبر نكسة عقلية ركبها الانسان ليحمل عليها أوزاره ويبرر بها إسفافه ، ثم حمل العقل عليها حملاً ، وكلفه بقبولها تكليفاً ، وقد كان الفكر سخيلاً جداً لما حاول أن يضيفها الى جدول أعماله.

وتمادت النكسة بالانسان واستبد به الوهم ففسر بالفكرة آيات من الكتاب .. من القرآن !. وأوّل بها أحاديث من السنة ... من سنة الرسول !.

ووضعها في قائمة العقائد ... عقائد الإسلام. وضمها الى بحوث التوحيد ، وجعلها من توابع عموم القدرة !!.

٢٥٤ الإسلام

صنع المرء كل هذا ليرتكب ثم لا يلقي حسيباً من الناس على ارتكابه ،
وقد تم له العمل ونجحت يديه الخدعة حتى على الضمير الادي ذاته ، فلم
ينصح ولم يؤنب !!.

علام يؤخذ المرء إذا كان مسيراً في ما يعمل ، مقسوراً على ما يأتي وما
يذر ؟.

لا .. ليس على المرء من حرج في ما يكسبه من أعمال ... انما اللوم على
الافذار ، اذا لم يكن بد من اللوم ..

على الأفذار الغالبة فهي التي شاءت أن يكون الذي كان ..
وما شاءت لا حيلة لأحل منه ولا قبل لأحد بتغييره.

وما على السيف الصارم من ملامة إذا أعمله فاتك في ظلم أو مؤمن في
جهاد ؟

ليس على الانسان من حرج في ما يفعل وما يدع ، انما هي أعمال القدرة
المقدرة المسيرة.

أما عقاب ذلك الانسان على ما وقع له من الاعمال فهو الله ..
لله الفعال لما يشاء.

وما على الله سبحانه من غضاضة في أن يعاقب المجرم ، وإن يك مجبوراً في
عصيانه ..

نعم. وإن كان القاسر له على عمل المعصية هو الله ..
لأن الله نافذ الارادة لا يسأل عما يفعل !!.

بل وما على الله ضرير ، وما في عمله من قبح إذا شاء أن يعذب المطيع
ويثيب العاصي. إذا شاء أن يعذب ذلك وإن يك أسبق من إطاعه. ويثيب

في ظلال العقيدة ٢٥٥
هذا وإن يك أعتى من تمرّد عليه .. يعذب ذلك على إطاعته ... نعم ويثيب هذا على عصيانه.

إنهما عبدان مملوكان خاضعان ، وكل ما يترّله بهما سيدهما فهو حق ، وكل ما يصنعه لهما فهو عدل. ولا خيرة لأحد معه ولا أمر.
أما العقل فما شأنه وذلك ؟

ما شأنه والتدخل في شؤون الله والحكم عليه في أعماله ؟.
أيجرّو إنسان أو عقل إنسان أن يحكم بوجوب شيء على الله أو بامتناعه عليه ؟.

إن الحسن والقبح مردّهما لله وحده ، فما أَراده سبحانه فهو الحسن ، وما مقتّه فهو القبح ، وليس للعقل أن يحكم فيهما بشيء !!
منكرات من العمل تبرّرها منكرات من القول ، ونكسة في الروح تجرّأ الى نكسة في التفكير ، وسقطة في السلوك تؤدي الى سقطة في العقيدة. ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

والله سبحانه يبرأ من عقيدة الجبر في صريح كتابه ، فالكفر والايمان مردّهما الى مشيئة الانسان ذاته ، ولا أثر فيهما لجبر أو اضطرار :
﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ ^(١).

والله عادل قائم بالقسط في الدنيا والآخرة ، لا يخيّف في قضاء ، ولا يجور في جزاء وهو متفضل على عباده يقبل اليسير ويثيب عليه بالاجر الكبير :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ^(١).

ويوم الجزاء يوفي كل عامل من الناس ما كسبت يده ، فلا يظلم في حساب ، ولا يبخس في أجر :

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ ^(٢).

والذين يتعلقون بالمقادير يلقون عليها تبعاتهم ، ويربرون بها سقطاتهم إنما يخلقون إفكا ويستمسكون بوهم :

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ^(٣).

الله لا يرضى لعباده الكفر في العقيدة ، ولا يأمر بالفحشاء من الفعل ، ولا يحب الجهر بالسوء من القول ، والله حكيم عليم لا ينقض ما يقول بما يعمل ، فلماذا يحاول الانسان الظلوم الكنود أن يرمي أثقاله على المقادير ويلتمس بها المعاذير ؟

ومن الغريب أن القائل بمبدأ الجبر لا يعترف به في خصومات الناس معه ، وتجاوزهم على حقوقه ، ولا يجنح إليه في تعليل أعمالهم ، ولا يعيل إليه في توجيه عدوانهم.

بل ويتنكر لمن يعتذر عنهم بالقدر ، ويهزأ برأيه ، ويسخر من قوله !!

١ — النساء ، الآية ٤٠ .

٢ — الأنبياء ، الآية ٤٧ .

٣ — الأعراف ، الآية ٢٧ .

ولا يعترف به في ذنوب خدمه ومرؤوسيه. ولا يعلل به مخالفاتهم ولا يراه عذراً لأخطائهم ، ولو اعتذر به أحدهم لأوسعته تأنيباً !!. وإنما يتعلق به في تموين خطاياهم وتبرير آثامه ، وفي محاولة التخلص من تبعاتها وجرائرها !!. في تعدي حدود ربه وانتهاك محارمه والزيغ عن هداه ، في هذا فقط يعترف بالقدر ويقول بالجبر.

وفي القرآن الكريم ان الجبر فكرة تلقفها الانسان منذ القديم فاحتج بها مشركون على شركهم واعتذر بها أفاكون عن إفكهم :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ ^(١).

وفي آية كريمة أخرى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ ^(٢).

وفي القرآن الكريم أن أول متهم للعدل الالهي بالحيف هو ابليس الرجيم ، فقد عصى أمر الله بالسجود لآدم واحتج لهذه المخالفة بأن الله خلقه من نار وليس من الحق أن تخضع النار للطين.

كبر على المرء أن يقر على نفسه بالظلم فاستساغ أن ينسب الظلم الى

١ — النحل ، الآية ٣٥.

٢ — الأنعام ، الآية ١٤٨.

الله ، وعظم عليه أن يحكم عليها بالعبث فقال : العبث في المقادير ، ومن الغريب بعد هذا كله أن يعد الجبر عقيدة من عقائد الدين ، ودعامة من دعائم الايمان ، يدين بها خالقه ويفسر بها عموم قدرته.

يقول : الله عام القدرة على كل شيء ، نافذ المشيئة في كل كائن.
فلا يسوغ أن يكون الانسان مختاراً في أعماله ، لأنه لو كان مختاراً في إصدار عمل لأصبح شريكاً لله في الابداع !!
أسمعت ... ؟

هكذا يحتجون ...

ولماذا يكون الانسان شريكاً لله في الابداع اذا كان مختاراً في العمل ؟ .
لأنه صار سبباً في وجود الشيء ؟ اذن فلماذا لا تكون الأسباب الطبيعية شريكة لله في الابداع كذلك ؟

أفينكرون سببيتها لوجود الشيء ؟

فقد سماه الله في القرآن اسباباً ، وهي بعد ليست موضعاً للتشكيك.

أم يستسهلون الامر لأنها غير مختارة ؟

الله قادر. وعام القدرة على كل شيء ، ولا جدال في ذلك من مسلم.

ولكنه الى جانب قدرته العامة عادل بلا حيف وعام العدل في كل تقدير وحكيم بلا عبث وعام الحكمة في كل صنع وليس معنى عموم قدرته ونفوذه مشيئته ان نعري إرادته عن الحكمة أو نتهمها بالظلم أو نسمها بالجهل.

أما المعادلة بين هذه الصفات الكريمة فستؤدي بالبدهة الى انه : « لاجبر ولا تفويض ، ولكن منزلة بين منزلتين » كما يقول الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام .

فقد شئت الحكمة أن تجهز هذا الكائن برغبات تثيرها خصائص العمل وبعقل يوازن به بين الرغبات ، وبارادة يصمم بها على الرغبة المختارة ، وبقوة عاملة يحقق بها الفعل المراد ، وبدن يصون الرغبة والعقل والارادة والقوة العاملة أن يشد شيء منها عن القصد وأن يزيغ عن الهدى.

فالمرء يفعل ما يفعل ويترك ما يترك مختاراً في فعله وتركه ، مختاراً في رغبته وتصميمه ، مختاراً في موازنته وترجيحه ، ولا قسر عليه في شيء من ذلك.

أما إمداده بالركائز التي يطمح بها ويرغب ، بالقوة التي يصمم بها ويختار ، وبالعقل الذي يزن به ويقارن ، وبالضمير الذي يسترشد به ويرتدع وبالدين الذي يصلح به ويستقيم ، اما تزويده بأجهزة الاختيار القريب منها والبعيد ، وبأدوات التصميم الاولى منها والاحيرة ، ثم ابقاء هذه الاجهزة وهذه الادوات مضمونة التأثير الى فرصة الاختيار موفورة الاعداد الى حين التصميم نافذة الفعل الى وقت العمل أما جميع هذا فهو من الله ... من الله وحده.

قد يطبق مغفل عينيه ثم يعتقد انه اعمى ، لأنه لا يشهد النور.

وقد يسد أذنيه ثم يستيقن انه أصم ، لانه لا يسمع القول.

نعم وقد يتخيل مصاب (بالهستيريا) أنه تحول (مركبة) معدة للنقل ، أو حملاً مهياً للركوب والحمل ، وقديماً جيء الى الشيخ ابن سينا برجل يدعي أنه انقلب بقرة ، والى طبيب آخر برجل يزعم انه يلد فيراناً.

أما أن يعمد انسان يعترف الناس له بالعقل ويدعي هو لنفسه العلم

٢٦٠ الإسلام

فيعمل عملاً بملء شعوره وملء رغبته وملء إرادته ، ثم يفكر بعد ذلك ويطلب التفكير : أهو مختار في عمله ذلك أم هو مجبور ؟!.

اما أن يدير المفتاح بكفه عامداً فيفتح الباب ، ثم يتساءل جاداً : أيّ الآتين اشد اقتساراً ، المفتاح لما استدار بكفه ام هو لما أدار المفتاح ؟! اما هذا النمط من التفكير فهو خروج عن مألوف العقل ، وانكار لأوليات الفطرة ، ثم هو تشويه لوجه الحق وتيسير لارتكاب الرذيلة. وأية قوة في العالم تستطيع ان تقف في وجه المرء متى اعتقد أنه مقسور على ما يعمل مجبور على ما يترك ؟. أية قوة تملك أن تقف قي وجهه اذا اعتقد أن الخير والشر عند الله سواء بسواء ، كلاهما مجبور عليه من الله. وكلاهما مجهول الجزاء لديه .. يشبه عليهما اذا شاء ويعاقبه عليهما إذا أحب ... ؟

يشبه عليهما كليهما اذا شاء حتى على فعل الشر ، ويعاقبه عليهما كليهما إذا اراد حتى على عمل الخير !.

لا ... ليس في الدنيا كلها قوة تطيق أن تردع الانسان عن غيه اذا هو اعتقد ذلك.

والدين وقوانين الخلق. وشرائع التربية. وانظمة المجتمعات. أية جدوى من هذه كلها للانسان اذا كان آلة صماء بكماء لاتعمل إلا بقاسر ولا تتحرك دون محرك ؟.

وأيُّ حكمة في اوامر الله ونواهيه وهو يشرع مالا يستطيع ويأمر بما لايمثل ؟ ان الدين في طبيعته دربة وامتحان.

دربة للعقل على التفكير السليم ودربة للارادة على العمل الرضي ودربة للنفس على الصفات الفضلى. وامتحان لها كافة يلقيه عليها من دروس ،

وما يلقنها اياه من هداية. وكيف يتلقى المرء هذه الدربة ، وكيف يجوز هذا الامتحان اذا كان أشل الارادة أجب الاختيار ؟!.

وانظمة الاخلاق وقوانين الاجتماع ومواضعات العرف وتشريعات الأمم انما هي حوافز للمرء على التوجه الى الخير الاعلى من وجهة ، وزواجر لارادته عن الاندفاعات المردية من جهة اخرى. وبين ان هذه النتائج لن تكون ممكنة الا حيث يكون الانسان حراً في الرغبة حراً في التصميم.

غريب أن يتساءل امرؤ أهو مختار في فعله ام مجبور ؟ لأنه يتغاضى بذلك عن بديهة ويرتاب في محسوس ، واشد غرابة من ذلك أن يلتمس دليلاً على اختياره اذا قيل له انك مختار ، ويتكلف اقامة الحجة على جبره اذا اعتقد انه مجبور ، أليس الاثبات والنفي والجرح والتعديل والقبول والرد انواعاً من عمل الانسان تقتضي تصميماً وتقتضي ترجيحاً وتقتضي هدماً وبناءً ؟ وكيف يملك أن يستقل فيها اذا لم يكن مستقلاً في الارادة مختاراً في الافعال ؟!.

الحق ان الانسان ينسى حديث الجبر وهو يقيم الادلة لاثبات مبدأ الجبر ويعترف بالاختيار وهو يوصد باب الاختيار ، والحق ان فكرة الجبر لاتستطيع ان تقف على قدم مهما نضّر لها الخيال من صورة ، ومهما زوّق لها البيان من صيغة ، ومهما ابتكر لها الانسان من فلسفة ، والحق ان مذهب الجبر وهم سخيف المعنى ضعيف المبني وان اتخذه بعض متصوفة الإسلام عقيدة ثابتة وعده بعض متكلمة الإسلام مشكلة عويصة.

والحق أن شريعة الجبر توجب سدّ كل معرفة وبطلان كل عقيدة وهدم كل ثقافة ، ذلك ان المعارف والعقائد والثقافات على تنوعها تستدعي

استقلالاً في العقل يملك به المرء أن يوازن ، وحرية في الارادة يستطيع بسببها أن يختار ، واذا ثبت فان ذلك جميعه ليس بمستطاع.

وأثر هذه الفكرة شديد في اضعاف ارادة المرء ، ودك شخصيته وهدم معنوياته ، وأي عمل حازم يؤمل صدوره من فرد هذه عقيدته ؟ وأي تقدم في ميادين الحياة يرجى لمجتمع هذه خطة أفراده ؟.

* * *

وحاول الانسان الحديث أن يثبت الجبر من طريق العلم !!.

حاول ذلك ليفلت من قيود الخلق ومن قيود الدين !!.

ليكون حراً طليقاً يختار ما يشتهي ويأتي ما يختار ؟!.

قال بالجبر من طريق العلم ، وسماها بالجبرية الذاتية ليفرق بينها وبين الجبرية الالهية ، لأن الجبر في رأيه هذا آت من عامل ذاتي قائم في اعماق الانسان ، وليس مسبباً عن ارادة جبارة خارجة عنه مسيطرة عليه.

قال بالوراثة ، ومعنى الوراثة عنده أن أسلاف الانسان — والحيوان منها بالطبع — تخطط له مصيره ومستقبله ، وترسم له مناهجه في حياته واتجاهاته في سلوكه ، وتقدر له كل صفة من صفاته في كل منحى من مناحيه ، في جسمه ونفسه ، وعقله وخلقه. وتنشئ طباعه وغرائزه وقواه وعواطفه وميوله ونزعاته وانفعالاته وتوجه كل شيء منه وجهته التي تقتضيها ثم لا تستطيع أية وسيلة من وسائل التربية الاخرى له صرفاً ، ولا تملك له تغييراً.

ان الشخص يرث من اسلافه سواد البشرة أو بياضها ، وطول القامة أو قصرها ، وكبر حجم الرأس أو صغره ، واستطالة شكله أو استدارته ، وزرقة

العينين أو سوادهما ، ولون الشعر وتقاطيع الوجه واشكال الاعضاء ، ولا حيلة له ولا لأحد سواه في استبدال شيء من ذلك ولا تحويره ولا قدرة للبيئة ولا للعوامل الأخرى على صرف ذلك الانسان الى وجه غير ذلك الوجه ، وايتائه صفة غير تلك الصفة.

ويرث من أسلافه قوة في بعض حواسه ، ومتانة في تركيب جسمه ، وحصانة فيه عن بعض الادواء واستعداداً لقبول بعضها ويرث من احدهم شذوذاً في طبع ، وتشويهاً في طرف ، وزيادة ونقصاً في عضو ولا خيرة له في قبول ذلك ورفضه ، ولا تجديده عناية مربٍّ ولا توجيه مرشد.

وكذلك يرث خصائص في تلافيف مخه وتكوين عصبه وتراكيب انسجته ، وجزئيات دمه ، وافرازات غدده ، تحدد ذكائه وتكيف إحساسه وتنشئ مواهبه وتوجه إرادته في سلوكه وتخلق صفاته وملكاتة. ولا ينتظر ان تكون له أو لأحد سواه يد في ذلك ولا طاقة على تهذيبه ، ولا سلطان على النقص منه أو الزيادة فيه.

هكذا يفسر هو معنى الوراثة ، ويهوّل امرها ويعد بحدودها ، ويحملها اعباء كبيرة تضيق بها وتضعف عنها. ويدعي أن العلم يضع لها هذا التفسير ويقيم لها هذه الحدود ويحملها هذه الاعباء !؟.

وهذه نتيجة لا يذهب اليها عالم طبيعي وهو يعني ما يقول.

لا يقولها عالم درس أسرار الطبيعة وسر قوانينها وخبر طرائقها.

ان الانسان كائن له إرادة ، وإرادته لاتتواجه إلا بعد شعور وموازنة وترجيح وتصميم ، وليس من خلق الطبيعة أن تؤتيه هذا الجهاز الكامل وهو غير مضطر اليه ، وبالأحرى وهو غير قادر على إعماله ، فقد قالوا : إن

حاجة الكائن هي التي تلد فيه العضو أو الجهاز الذي يبلغ به تلك الحاجة ، وقالوا : إذا بطلت الحاجة الى جزء من أجزاء الكائن أعدمت الطبيعة منه ذلك الجزء ، ومعنى ذلك أن الطبيعة حكيمة مقصدة لاتؤتي الكائن من الاعضاء والاجزاء الا ما يوائم به بيئته ويدرك به ضرورته.

وقوانين الوراثة التي أقرها العالم وأحلها في الحقائق الثابتة لاتقضي الى هذه النتيجة ، وأثر البيئة والتربية الحازمة الرشيدة في توجيه موروثات الكائن مما لا سبيل الى انكاره في توجيه موروثات الكائن وان كان نباتاً أو حيواناً بله الانسان العاقل ذا الارادة والشعور.

بلى حتى النبات. وهو المسرح لتجارب (يوحنا مندل) مقرر قوانين الوراثة ومكتشف جيناتها ، وعوامل الوراثة فيه من أعنى العوامل على التقويم وأناها عن التربية المقصودة ، من حيث أن النبات لاشعور له ولا إرادة ، وحتى أوصاف الانسان التي يبدو أنها لازمة ولا مدخل فيها للتربية كلون البشرة ومقدار القامة وحجم الرأس ، أقول حتى هذه الأنواع من عوامل الوراثة فانها وإن استعصت على التربية الا أن اثر البيئة في انماؤها واضح.

وموارث الكائن ليست سوى استعدادات قوية أو ضعيفة لأوصاف في الأسلاف أصلية أو طارئة. والخصائص التي تحدت عنها هؤلاء القائلون ، وقالوا انها توجه سلوك الانسان وتقتاد إرادته وتخلق صفاته لاتثمر سوى هذه الاستعدادات الجسمية أو النفسية أو العقلية.

وهذه الاستعدادات الموروثة قد تفتقر من نموها وقيامها صفات كاملة ناضجة الى تدخل البيئة وحدها فلا مكان معها لتربية ، ولا مجال بعدها

في ظلال العقيدة ٢٦٥
لتهذيب ولا تغيير : ومن هذه العوامل التي تقتضي لون البشرية وتقاطع
الوجه ولون الشعر واشكال الاعضاء.

وقد نفتقر في فعليتها الى عوامل أخرى ، وهذه هي التي تتدخل فيها
التربية المقصودة ، والتي يمكن في نتائجها المحو والاثبات ، ومن هذا النوع
الاستعدادات الجسمية لقبول بعض الأمراض ، فإن الطب الحديث يملك ان
يقف منها مواقف حاسمة.

ومن هذا النوع الاستعداد لضعف في البنية ، فان الرياضة البدنية
الصحيحة تستطيع ان تنفادى منه ومن أعراضه وعقابه.
ومن هذا النوع ايضاً مبادئ الاخلاق واتجاهات السلوك التي يرثها عن
اسلافه فان التربية الصالحة والارادة الحازمة تملكان ان تضعاهما حدوداً
وان تفرضاهما رقابة وتجعلاهما تبعات.

* * *

والعدل في الإسلام أصل ومبدأ ومنهاج وغاية.
فالعدل أساس من اساس الدين وأصل من اصوله حين نصف به خالق
الكون عزّ اسمه.

ويراد من عدل الله سبحانه انه لا يهمل فعلاً تحتمه المصلحة ، ولا يصدر
قبيحاً تمنعه الحكمة ، لا يصنع شيئاً من هذا ، ولا يغفل شيئاً من ذلك ، لانهما
لا يكونان إلا الحاجة تضطر الفاعل الى المخالفة وقد تتره الباري عن الحاجة
لغناه. أو الجهل من الفاعل بصلاح الشيء وفساده وقد تعالى الله عن ذلك
لعلمه ، أو لعبث يريد به بذلك الفعل دون جهل منه ولا حاجة ، وقد تعالى الله
عن ذلك لحكمته :

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (١).

وعن القول يعدل الله سبحانه ينشأ القول بعصمة أنبيائه وأوصيائه ، وهي إحدى عقائد الإسلام الأخرى. والعصمة أعلى درجات العدل في الإنسان وأقوى مراتب الاستمسك بالدين.

وإذا كان النبي والوصي من بعده هو الممثل الأعلى للدين في الأمة والقيم الأكبر على إقامة العدل فيها فيجب أن يكون أشد الناس تمسكاً بمبادئ الدين وأقوامه انطباعاً بملكات العدل ..

ومحال على الله الحكيم العدل المقتدر أن يأتمن على شريعته رجالاً لا يأمن الناس على أحاديثهم الكذب ولا على أعمالهم الفسق ولا على نصيحتهم الخيانة ، محال أن يقع منه ذلك لأنه قبح تحظره الحكمة أو جهل يمنعه العلم أو اضطرار تأباه القدرة.

والعدل مبدأ ومنهاج حين نصف به دين الإسلام ذاته :

ويقصد بعدل الإسلام أنه قيم ليس فيه ميل ولا اضطراب ، قسط ليس به سرف ولا تقصير ، وانه عام الملاحظة لنواحي الإنسان دقيق الموازنة بين أطواره وأحواله ، فيفي لكل منحى من نواحيه بما يستحق ، ويشرع لكل حال من أحواله ما يقتضي ولا يخيف على جهة بالتشريع لأخرى ، ولا يؤثر ناحية على حساب ناحية :

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ
لِّلْمُسْلِمِينَ * إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ
عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ^(١).

والعدل هو الغاية من تشريع الدين حين نصف به الانسان الفرد أو نصف
به الانسان الأمة.

العدل هو الاستقامة ، والاستقامة هي الكمال. والكمال هو الغاية.

فيجاد الانسان العادل واقامة المجتمع العادل هي غاية الله من الإسلام
حين وضع أول حجر من هيكله ورفع أول قاعدة من قواعده. ومن أجل
هذه الغاية وضع كل حجر منه وأقام كل قاعدة ، ومن أجل هذه الغاية أتم
البناء وثبت الدعائم. وبهذه الغاية الشاملة يرتبط كل جذر من جذور
الدين وعليها يتفرع كل غصن من أغصانه ومنها تبدو وتنضج كل ثمرة
من ثمراته :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ
النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ ^(٢).

والعدل في الإسلام سلسلة مترابطة الاجزاء مترابطة الحلقات. فمن
العدل في العقيدة الى العدل في المنهاج الى العدل المهدف ، ومن الاتزان في
السلوك الى الاتزان في المعاملة الى الاتزان في الخلق ، ومن النصف بين
الغرائز الى النصف بين الافراد الى النصف بين الامم ، ومن القسط في القول

١ — أ النحل ، الآية ٨٩ — ٩٠ .

٢ — الحديد ، الآية ٢٥ .

الى القسط في الحكم الى القسط في الميزان ، ومن الاستقامة في النفس الى الاستقامة مع الغير. ومن العدل في الفرد الخاص الى العدل في المجتمع العام ، ومن التساوي في الحقوق الى التساوي في الطبقات. ومن العدل في ميادين العمل في الدنيا الى العدل في موازين الجزاء في الآخرة ، كل هذه مجالات لنشاط الدين ، وكل هذه مجالي للعدل المتكامل الذي يستهدفه دين الاسلام. وكل هذه مظاهر لعدل الله الكامل الشامل تدل على مرشد دينه كما تدل على مناهج قوانينه.

فالمؤمن حقّ الايمان من يقوم لله بالقسط ، ومن يكون رقيباً لله على نفسه وعلى خاصته في ذلك قبل أن يكون شهيداً له على من سواهم ، ومن لا يشذ به الهوى ولا تميل به الأغراض عن منهج العدل في جميع ذلك. أما من يلوي أو يعرض فان الله خبير بالخائنين في عهودهم ، ونقمتهم مرصودة لهم جزاء وفاقاً لحياتهم :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ^(١).

والمؤمن حق الايمان من يتصل عدل اللسان منه بعدل اليد والقلب ، فلا ينطق لسانه إلا بصواباً ولا يحكم إلا عدلاً ولا تعمل جوارحه إلا حقاً ولا يعزم قلبه إلا خيراً :

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ ^(١).

والمؤمن ولي المؤمن في إقامة العدل في خاصته وعامته ، يرشده اذا جهل ويقومه اذا زاغ ويشده اذا ضعف وينهض بمعونته اذا أعيا :

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴾ ^(٢).

ومن أجل هذه النزعة الشديدة الى العدل وهذا الولوع الاسلامي باقامته فكل عمل يؤدي الى الخير ويوافق الشريعة فإن القرآن الكريم يسميه عدلاً ، فيقول مثلاً في وصف يوم الجزاء والتحذير من شدائده :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ^(٣).

ويقول أيضاً : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا ﴾ ^(٤).

والعدل فريضة محتومة تحب رعايتها والمحافظة عليها من جميع افراد المسلمين ، حتى مع الكفار الذين لا يدينون دين الحق اذا لم يقاتلوا المسلمين ولم يضطهدوهم ولم يفتنوهم في دنياهم ولم يلبسوا عليهم دينهم. حتى مع هؤلاء يجب على المسلمين القسط في المعاملة ، والمساواة في حقوق الانسانية

١ — الأنعام ، الآية ١٥٢ .

٢ — سورة العصر .

٣ — البقرة ، الآية ٤٨ .

٤ — الانعام ، الآية ٧٠ .

بل ويسمو الاسلام على ذلك الى البر بهم والاحسان الى ضعفائهم :

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ^(١).

والحقد والشنآن كذلك لا يسوّغان لأحد من أتباع هذا الدين أن يرتكب مع مناوييه ما يخالف عدل الاسلام ، وأن ينحدر الى شهوة الانتقام وبؤرة التشفي فإن المسلم أزكى من ذلك نفساً وأطهر قلباً :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ^(٢).

والحقد والشنآن ذاتهما موضوعان لنظرة العدل في الاسلام ، فلا يحقد المؤمن إلا في الحق ولا يبغض الا في الله. وطبيعي أن يتحدد هذا الحقد وهذا البغض بمقدار ما يقتضيه الحق وما يأمر به الله ، وطبيعي أن تنحصر بواذرهما ونتائجهما في ضمن هذه الحدود. ومشانأة أحد للمسلمين لاتعني أن الشانيء مجانب للحق في جميع احواله ، وواجب المؤمن هو مراعاة الحق أئى كان وأين وجد.

وإذا قعد الضعف الانساني بأحد عن هذه الغاية ومالت به الاغراض عن الله في كراهته وحقده ، فلا ينتظر من دين الله إن يميل عن الحق لميل أحد اتباعه ، على انه لايهتم بحقوق المناوئين قدر اهتمامه بما تتركه رعاية هذه

١ — المتحنة ، الآية ٨.

٢ — المائدة ، الآية ٨.

الحقوق من زكاة في نفوس المسلمين وتهديب لطباعهم وجلاء لآيماهم.
وحتى الحروب المقدسة التي يشنها الإسلام على أعدائه ليس معناها
سقوط أحكام العدل مع هولاء المحاربين واستباحة العدوان عليهم.
إن الإسلام إنما يكافح الجور في شتى مظاهره وفي شتى أسبابه ، فلا يعقل
أن يحبيه وهو يبتغي إبادته. وإن الإسلام إنما يدعو الكافرين به الى اقامة
العدل فلا يعقل ان يسقط معهم أحكام العدل ، والمتحتم على الفرد المسلم في
هذه الحروب ان يكون صورة حيّة لعدل الإسلام ، وبرهاناً شاخصاً على
صدق دعوته :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ ﴾ ^(١).

بلى ان الله لا يحب المعتدين حتى في هذه الظروف الحرجة التي يجد فيها
الناس مساعاً للاعتداء.

ان الحروب التي يشنها الإسلام حروب عادلة ، لا لأن الإسلام يبتغي
من إثارها إقرار العدل وتعميم مناهجه وتيسير سبله فحسب ، بل لأنها
عادلة في جميع ملامحها ، مقسطة في جميع أوضاعها.

هي طلبة الحيا بالامان مشرقة الأسارير بالعدل حتى في أشد مواقفها
محنة وأمض ساعاتها بلاءً ، وهي بذاتها تهدي المستبصر بعقله إذا رام الهدى
كما تقوم المعوج بطبعه اذا أثر الزيف.

والخروج على العدل في المجتمع الاسلامي والاستخفاف بالأمن فيه

جريمة كبرى في موازين هذا الدين ، ومرتكبها محارب لله ولرسوله مستوجب لأَمْض أنواع التأديب :

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ^(١).

فاذا كانت المخالفة من طائفة ذات منعة وقوة فان الإسلام يشن عليها حرباً مؤدبة حتى يفىء الباغي ويستقيم المعوج :

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ ^(٢).

وإذا كان العدل هو الاستقامة والاتزان في الخلائق. والاحذ بما يصح من الامور والنبد لما لا يصلح منها والحفاظة على مايجب من قوانين والاحتراس عن الخلاف عليها فإن العدل دين كل شيء وشرعية كل كائن :

﴿ وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ ^(٣).

أما العدل في الآخرة فانه الحافز الاعظم على الاستقامة في الدنيا. والجزء المتم لمنهاج العدل في الدين :

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ

١ — المائدة ، الآية ٣٦ .

٢ — الحجرات ، الآية ٩ .

٣ — الحجر ، الآية ٢١ .

كَانَ مَثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿١﴾ .

على هذا السنن المستقيم العادل أسس دين الإسلام يوم أسس ، وأنزل كتاب الإسلام يوم انزل : ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ (٢) وعلى هذا السنن المستقيم العادل توالى أحكام هذا الدين وتتابعت أصوله وفروعه وأنزلت تعاليمه وآدابه : ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ (٣) وعلى هذا السنن المستقيم العادل اتم دين الله آخر نص من نصوصه ، وختم وحي الله آخر آية من آياته :

﴿وَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٤) .

الدين ضرورة يقتضيها تنظيم الكون ، وتنظيم الحياة ، وتنظيم سلوك الانسان الفرد وسلوك الانسان الامة ، وتنظيم علاقته بعبده ببعض وفرده بالمجتمع ، وتوثيق روابطه بالكون ، وتوثيق صلته العظمى برب الكون .
والدين نظام اختياري لاسبيل فيه للجبر ولا مساغ للاضطرار ، لانه توجيه للعقل وتقويم لارادة وتهذيب للضمير ، وأخذ بيد الانسان في سلوكه الاختياري الى كماله الأعلى الاختياري . وقد قدمنا تفصيل هذا وأقمنا على ثبوت وجوهاً من البرهان .

١ — الأنبياء ، الآية ٤٧ .

٢ — الشورى ، الآية ١٧ .

٣ — الانعام ، الآية ١٢٦ .

٤ — الانعام ، الآية ١١٦ .

ومتى استبان ذلك للعقل وعلم به حق العلم فقد اتضح له دون مريّة ان بعث الأنبياء ضرورة لا بد منها كذلك.

ضرورة تقتضيها جميع النواحي المذكورة ، من حيث أنه ضرورة يقتضيها وجود الدين وتبليغ أحكامه.

الدين عقيدة للإيمان تستتبع شريعة للعمل ، وجليّ أن كل واحدة من هاتين اختيارية تعتمد على الموازنة والترجيح وامعان الفكر في التصويب أو التخطئة وليست سنة طبيعية لها في مجال التكوين مجرى معين لا تعدوه وغاية محدودة لا تحرف عنها. والدين وضع إلهي لامدخل للبشر في تشريعه ، وليس في طاقة أي منهم أن يكون له مدخل فيه وجميع هذا قد تقدم الحديث فيه مبسوطاً مشروحاً.

واذن فلا محيد عن النبوة اذا لم يكن محيد عن الدين.

لان مصدر التشريع في الدين هو الله. وليس بمقدور الناس أن يتفهموا دينهم عن الله سبحانه مباشرة دون وسيط.

والرسالة في صفتها الاولى سفارة عن الله تعالى تقوم بشرح العقيدة وإبلاغ الشريعة ، وإيضاح الحجة ، والرسول في مهمته الثانية داعية الى الله يبين للناس رسوم الحق ومعالم الباطل ، وينير لبصارهم محاسن الهدى ومقايح الضلال. وقول الرسول سند لثبوت كل رسم من رسوم الدين وكل بند من بنود الشريعة وكل علم من أعلام الحق ، والرسول هو النموذج الاعلى الذي اعدّه الله للناس ليصوغوا انفسهم على مثاله ، بأقواله يهتدون وبأعماله يقتدون :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى

في ظلال العقيدة ٢٧٥
اللَّهُ يَأْذِنُهُ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿١﴾.

كل هذه تدلنا على ان بعث الرسل ضرورة لا غناء للبشر عنها : لأن الدين ضرورة لا غناء للبشر عنها.
وكل هذه تدلنا على ان عصمة الرسول واجبة. لأن أهداف الرسالة لاتتم بدونها.

عصمة الرسول في التبليغ لأنه سند للشرية.
وعصمته في السلوك والصفات لأنه المثال الاعلى للامة.
وعصمته في كل قول وفي كل عمل. لأن دليل الصدق لا يكون كاذباً
وقيم العدل لا يكون ظالماً ، وبرهان الصواب لا يكون ضالاً.
هذه حقائق لن يرتاب العقل المستنير في واحدة منها إذا هو استوضح
معنى الرسالة في الدين ، واستبان مقام الرسول من الشريعة واستجلى
موضوع قيادته للامة.

ولن يرتاب العقل المستنير في واحدة منها اذا علم أن الرسالة سفارة
يقيم الله بها حجة ، وينيط بسلوكها نظاماً ويمهد بها الى غاية. هي غاية الله
سبحانه من تكوين هذا الوجود وايجاد هذا الكائن.

ولن يرتاب العقل المستنير في واحدة منها اذا أيقن أن الرسول لازم
التصديق في كل قول ، واجب الاطاعة في كل حكم ، مفروض الاجلال
والتوقير على كل حالة. وما كان الله ليحتم تصديقه على الناس اذا كان
لايمتنع على قول الكذب ، وما كان ليوجب طاعته عليهم اذا كان لا

يستحيل على عمله الخطأ ، وما كان ليفرض إجلاله وتوقيره في كل حالة اذا كان غير مأمون الخيانة غير مأمون العثار.

لن يرتاب العقل المستنير في وجوب عصمة الانبياء اذا هو استوضح هذه المعاني. أما ما يوهم خلاف هذه العقيدة من النقول فلا مناص من تأويله.

لامناس من تأويله إذا اتسع لفظه للتأويل ، ولا مناص من طرحه اذا لم يتسع لذلك واقول :

لامناس من طرحه اذا لم يتسع لفظه للتأويل ، لأن النقل حين ذاك يكون مقطوع الكذب وأية قيمة للدليل اذا كانت هذه صفته ؟.

* * *

هبة فوق الهبات تُمدّ بها عبقرية فوق العبقریات.

هذه النبوة في افقها الرحب وفي نعتها الشامل الذي تشترك به عامة الانبياء ، وتدعن لطاعته أصناف البشر.

ليست خُلُقاً يتوصل الى تهذيبه بالمجاهدة ، وليست مكاشفة يتذرع الى اكتسابها بالتبتل ، ولا مرتبة نفسية اخرى يتدرج الى الحصول عليها بالرياضة.

ليست النبوة شيئاً من هذه الفضائل لتخضع للاختيار وتنال بالاجتهاد ، ولكنها هبة من هبات الله سبحانه ، وهبات الله لا تكال جزافاً دون وزن ، ولا تفاض على أحد دون استحقاق. بل لا بد من عبقرية فريدة تتسع لهذه الهبة الفريدة.

عبقرية تحسن قيادة الامم المختلفة في العوائد ، والافراد المتباينة في

الطباع ، والعقول المتباعدة في الادراك. عبقرية هي الفرد الاتم الأسمى في كل مجالات العبقرية ، بحيث يتفياً ظلالها كل عبقرى ، ويقبس من صلاحها كل مصلح ، ويستضيء بهديها كل هاد ، ويستكمل من عرفائها كل عارف.

هذه العبقرية الفريدة في الناس هي وحدها التي تقدر أن تنهض لله بالشرط حين يحملها عبء هذا الميثاق ، ويستودعها سرّ هذه الهبة ، ويمنحها شارة هذه الزعامة. وهي وحدها التي تطيق أن تستقبل وحي الله كاملاً غير منقوص ، ثم تؤديه الى كل فرد من عباد الله كاملاً غير منقوص. وهي وحدها التي تحسن أن توجه هداية الله الى خلقه توجيهاً مشعاً بالنور وافياً بالحاجة.

مشعاً فلا يطغى على البصائر لتعقيد ، ولا تزاور عنه العقول لوهن ، ولا تتجافى عنه لتهافت. وافياً فلا تزيد يلحقه بالفضول ، ولا قصر يقعد به دون المقصود ، ولا غموض يسف به عن الحكمة وينقطع به دون النتيجة.

توجيهاً يوائم عظمة الحق في تشريعه ، وعظمة الدين في مناهجه ، وعظمة الانسان في غايته ، بحيث تصطح العقول المتباينة على اكباره ، وتجتمع على الافادة منه ، فيأخذ كل عقل منه ما يحتمل ، كالغيث يأخذ كل موضع منه بمقدار ما يتسع وتمتص كل نبتة منه بمقدار ما تترتوي ، وكالكهرباء يقبس كل مصباح منه قدر ما يطيق ، ويفيد كل جهاز منه قدر ما يتغنى.

هذا العقل الفريد الذي يمد العقول كلها فلا تنكر ، وبأخذ بأعضاها فلا تقصر ، وهذه الروح الذي يوجه الارواح كما يشاء ويتصرف في ملكاتها

كيفما يريد ، وهذه النفس التي تزكو بزكاتها النفوس ، والقلب الذي تصفو بصفائه القلوب. وأخيراً هذه الانسانية المشعة في جميع مناحيها ، الرشيدة من كل جهاتها ، هي التي تستحق أن يضع الله يديها زمام البشر ، وأن ينيط بها سبب هدايتهم ، ويجعلها منار رشدهم.

وظن العابثون من قريش الطامعون بما يستحيل أن يكون ، ظن هؤلاء أن النبوة حظ يجب أن يسقط على مقدار سعة الأشداق واندحاق البطون ، فمدوا أعناقهم بالرجاء. وقبضوا أكفهم على الأمل. ومادام محمد الفقير اليتيم أصبح نبياً يسدده الوحي وتلوي بطاعته الرقاب ، فان كل كبير من كبراء قريش يجب أن يكون نبياً كذلك ، يهبط عليه الوحي وتعنو له الرقاب. ولم لا ينالون هذا الحظ وهم أوفر من محمد مالا وأجهر منه صوتاً وأكبر منه سناً وأرأى منه عدداً؟. وحتى قال مسرف من هؤلاء العابثين : زاحمنا بني عبد مناف في الشرف ، حتى إذا صرنا كفرسي رهان ، قالوا منا نبي يوحى إليه ، والله لانرضى به ولا نتبعه أبداً إلا إن يأتينا وحي كما يأتيه.

وفي ردّ هذه الأنفاس ولقمع هذا التطاول أنزل الله سبحانه هذه الآية

الكريمة من الوحي الكريم :

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾^(١).

الله هو فاطر الناس ومغرّر غرائزهم ، وعالم سرهم وعلا نياتهم ،

في ظلال العقيدة ٢٧٩

واصطفأوه بعضهم على بعض لا يجري على هذه المقاييس التي لاتسن ولا تتبع إلا في المجتمع الوضع الرقيق ، بل يستند لما للفرد في ذاته من موجبات الأهلية ، ولما له في سماته من مقتضيات التقديم.

أما هؤلاء المستكبرون على الحق المتطاولون لما لا يستحقون فسينالون جزاء استكبارهم وعقبي تطاولهم وجحودهم.

* * *

وطبيعي أن تكوين المجتمع العادل وغرس الفضيلة الجامعة.

المجتمع الذي يجمع صنوف العدل. والفضيلة التي تنتظم أشتات الفضائل.

طبيعي أن بلوغ هاتين الغائتين يتوقف في درجة الأولى على التربية الصالحة والتوجيه العملي الرشيد. فاجتثاث الخلق السيء من اعماق الفرد واستئصال العادات الرديئة من اطواء المجتمع ، ثم استبدال الفاسد منهما بالصحيح والقبيح بالحسن ، والارتفاع بالفرد وبالأمة في مدارج العدل ومناهج الاستقامة الى حيث العدل الأعلى الأقصى الذي ابتغاه الدين والاستقامة التامة التي استهدفها مناهجه. هذه عملية شاقة تفتقر الى تربية جد طويلة وعناية جد حكيمة ، والى كثير من الجهد وطويل من المصابرة يبدلهما المربي لإنجاح هذه المهمة.

إنها خلق نفوس وترميم جيل ، والخلق والانشاء لا يكفي لها قول مجرد وان يكن القائل أفصح خلق وأبلغ مفعو.

وطبيعي كذلك أن الاسوة الحسنة بالمربي والقودة الصالحة بأفعاله وصفاته هي السبب الاقوى في التربية المحمدية والعامل الأعظم في نجاحها فالتأسي بالعظماء في الصفات والاقتداء بهم في المظاهر والاعمال

إحدى الترعات الاصلية في نفس الانسان ، المنطبعة فيها منذ نعومة اظفاره.

من اجل هذا كانت بعثة الرسول وكانت عصمته من متممات رسالة الدين ومن الضمانات اللازمة لتحقيق غايته. ومن اجل هذا كانت بعثة الرسول وكانت عصمته من ضرورات الانسان الفرد ومن ضرورات الانسان الامة للارتفاع بهما الى هدف الانسانية الأقصى. ومن اجل هذا كانت مهمة الرسالة مزدوجة فهي بلاغ مبين لتعاليم الدين وشرح واف لأهدافه من جهة ، وهي تربية لنفوس الامة وتزكية وتطهير لقلوبهم وارواحهم من جهة اخرى :

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ^(١).

ومن أجل هذا بذاته كانت الامامة التي تعهد بها النبوة ، وكانت عصمة الامام الذي يوصي اليه النبي ﷺ من متممات رسالة الدين كذلك ، ومن الضمانات اللازمة لتحقيق غايته.

هذا التمثيل الصادق لأدوار الرسول ﷺ بعد لحوقه بالرفيق الأعلى ، وهذا الامتداد الوضعي في عمر النبوة بعد انتهاء أمدّها الطبيعي بموته ، هذان أمران لامندوحة عنهما للدين إذا لم يكن بد من إتمام رسالته ومن ضمان غايته. فإن تكوين المجتمع العادل وغرس الفضيلة الجامعة لا يكفي لهما تربية

جماعة من الناس ، بل ولا جيل كامل من أجيالهم ، مهما تكن التربية رشيقة ، ومهما يكن المربي حكيماً. فمن شأن المجتمع أن يتجدد ويتسع ، ومن دأب نفوس الأفراد أن تتردى وتزلق ، وغرائز الناس هي الغرائز في نزقها وجماحها وعوائق الفطرة عن الاستقامة هي العوائق في شدتها ووفرقتها وأهواء القلوب هي الأهواء في مداخلها ومخارجها. وكل هذه معاثر ومزالق تدفع بالنفوس الى التردى وتحمل المجتمع على الانتكاس ، وهما لذلك ولسواه ما يزالان مفتقرين الى التربية الطويلة والمصايرة الحكيمة ، وما يزالان مفتقرين الى القدوة الصالحة والمثال الأعلى. ما يزالان مفتقرين إلى عقل يعد العقول بالهداية ونفس تمد النفوس بالزكاة وقلب يعد القلوب بالطهر. ما يزالان مفتقرين إلى الانسانية المشعة بالهدى ، المنيرة بالحق ، المشرقة بالعدل.

فلا معدل عن إمامة تحمل أعباء النبوة وتمثلها في مهمتها حق التمثيل.

ولا معدى عن إمام تتم به على المؤمنين المنة ، وتكمل لهم النعمة.

* * *

وللرسول ﷺ مقام الزعامة الكبرى في الامة وموضع القيادة العامة من صفوفها ، وسلطته هذه مستمدة من صميم الرسالة التي يجهد لأدائها ويكدح لاعلائها. ومن صريح المبدأ الذي يعمل لنشره ويقوم على تنفيذه.

من جوهر كلمة الله التي انيطت به ومن طبيعة دين الله الذي يُعنى بتبليغه يستمد الرسول زعامته المطلقة للبشر ، وقيادته العامة لصفوفهم ، وولايته الكبرى على امورهم ، فبيعته هي بذاتها بيعة الله الذي أهله لهذه الزعامة ،

واختصه بهذه الكرامة ، والموفون ببيعته من الناس إنما يوفون ببيعة الله المبرمة ، والناكثون منهم إنما يخيسون بعهد الله الوثيق ، والله وحده ولي الجزاء الحق للناكثين والموفين :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ^(١).

والرسول واجب الاطاعة على الناس جميعاً ، وفرض طاعته هذا باذن الله ربّ الناس ، ملك الناس ، إله الناس : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) ، وما كان الله لينتدبه لهداية الخلق ثم لا يضمن لكلمته النفوذ ، ولا يعبد طريقها الى القلوب ، وما كان الله لينيط به تقويم المجتمع ، وحسم أدوائه وعلاج مشكلاته ثم لا يوليه الامر في تدبيره ، ولا يؤتية القيادة في تسييره. وما كان الرسول أن تكون طاعته بغير إذن الله وهو يحمل رسالته ويدعو الى توحيده وينفي الانداد والاضداد معه ، وما كان لذي عقل أن يصدّق قائلاً عن الله وهو يبتغي الطاعة من المخلوقين باسم سواه.

وحتى مغفرة الذنوب وهي في دين الإسلام من شؤون الله وحده ، ولا إرادة لأحد من المخلوقين فيها بنقص ولا إبرام. أجل فالله وحده هو واضع الحدود والتبعات ، ومالك الجزاء والعفو وعالم السر والعلانية ، وقابل التوبة عن عباده ، ومحصي أعمالهم والمطلع على نياتهم. وليس في دين الإسلام

١ — الفتح ، الآية ١٠ .

٢ — النساء ، الآية ٦٤ .

كراسي اعتراف ولا صكوك غفران.

أقول حتى مغفرة الذنوب ، فان لجوء المذنب الى شفاعة الرسول ، والتوسل به الى الله في نيل الغفران ودعاء الرسول ﷺ له بالتوبة. هذه الوسائل أجدى له في استيجاب المغفرة من الله وشمول الرحمة ، وأدنى لقبول إنابته والعفو عن تقصيره :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ (١).

وأمر الرسول عزيزة من عزائم الله سبحانه. لا يجوز أن تخالف ، ولا موقع معها لمشاورة ، ولا مساع بعدها لتردد. ومن تطمعه نفسه بمخالفة هذه العزيمة الالهية فانما يتعرض بصنعه هذا للمقت الكبير وللضلال المبين :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ (٢).

والتسليم لحكم الرسول فيما شجر بين الناس لازمة من لوازم الايمان ، بل وركيزة من ركائزه ، فلا يقر الايمان في قلب أحد ولا ترسخ قواعده ولا تقوم دعائمه بدونها. التسليم الاختياري الكامل ، بحيث تتأزر النفس والفكر والضمير والارادة والظاهر والباطن على الخضوع لحكمه والاعتناع بفضله ،

١ — النساء ، الآية ٦٣ .

٢ — الأحزاب ، الآية ٣٦ .

وبحث لا يجد المحكوم في قرارة نفسه من إصدار الحكم عليه ضيقاً ، ولا في تنفيذه حرجاً ولا في الانقياد لموجهه ضعة :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ^(١).

هذا الوازع النفسي المكين المنطبع في دخيلة الانسان وفي أعماق قلبه وروحه ، الذي يحمل على التسليم لحكم الرسول في نفسه وأهله وماله وولده دون حرج ولا ضيق ، هو المتم للإيمان ، وهذه الطمأنينة التامة إلى قوله حتى في مواقع الشجار — والشجار مظنة للتعصب خلاف الهدى — هي المظهر الصادق له.

والرسول الى ذلك جميعه هو المثال الكامل للانسانية الكاملة ، بأفعاله تقتدي الامة ، ومن أنواره تقتبس ، وعلى هديه تسير :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ^(٢).

كل هذه لوازم لاتنفك عن طبيعة النبوة ، ولا تنفصل عن حقيقة الدين ، وعن نظام الدعوة اليه ، مهما اتسعت أو ضاقت آفاق الدعوة ، ومهما صعبت أو سهلت مهمة النبي أو الرسول ، فأنبياء الله ورسله كافة يشتركون في هذه الحقوق ويتبوؤن هذه المتزلة ، كل في نطاق دعوته ، أما الاعتراف بنبواتهم أجمع فقد أوجبه الإسلام على البشر أجمع :

١ — النساء ، الآية ٦٥ .

٢ — الأحزاب ، الآية ٢١ .

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يَفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾^(١).

من فكرة التوحيد العامة التي قبسها الإسلام من الوحدة الكونية الكبرى. وحدة الكون في العناصر ، واتساقه في الانظمة وتجانسه في الغايات. ثم تداخل انظمته هذا التداخل الشديد حتى لا تكاد تفترق ، وتربط غاياته هذا الترابط الوثيق حتى لا تكاد تتعدد ، وانسجام الموجودات فيه على التآلف ، وإمداد بعضها بعضاً بالعون. ثم خضوع كل ما في الكون من القوانين لقانون ، وانصياع كل مافيه من الأشياء والحركات لارادة.

من فكرة التوحيد العامة التي قبسها الإسلام من هذه الوحدة الكبرى نشأت فكرة المجتمع في هذا الدين ، وعلى هذا الإسلاس البعيد الغور العميق الجذور شد أواصر الانسان بمن حوله من أناسي ، وبما أحاط به من أحياء وبما اكتنف به من أشياء ، وعالج مشكلاته بما هو جزء من الكون لا ينفصل ، وبما هو خاضع للطبيعة لا يستقل ، ونظر في اموره بما هو كائن يشده الى الأرض جسد مخلوق من عناصر المادة ، وتصله بالسمااء نفس لها روحانية الملائكة ، وتوقره الحياة بغرائز لا يرتفع بها عن صنوف الحيوان ، وترفده الانسانية بخصائص لا يسمو اليها شيء من الموجودات.

بهذا المنظار الدقيق الذي ينفذ الى أعماق الأعماق في بيئة الانسان الكونية والى غور الاغوار في دخیلته الذاتية يستوعب الإسلام كل خصائص هذا الكائن فحسباً. ويستقرىء كل ملابساته درساً ، كي يصف له العلاج الواقى ويضع له المنهاج الراقى.

العلاج الذي يحسم عنه كل داء ، والمنهاج الذي يسدده في كل مدى.

أقول : على هذه الوحدة العامة التي تربط بين أجزاء الكون وتصل بين متفرقاته وتؤلف بين غاياته ؛ بنى الإسلام جميع تشريعاته للانسان ، فأى حكم من أحكامه شرّعه للانسان بما هو موجود مستقل فهو حكم له كذلك . بما هو فرد من أفراد المجتمع ، وهو حكم له بما هو مولود من مواليد الحياة ، وشيء من اشیاء الطبيعة ، وأخيراً بما هو جزء من اجزاء الكون. وعلى هذه الركيزة وضع الإسلام فكرته في الاجتماع وأسس نظامه للمجتمع ، فالبشرية بجميع اصنافها وبكل تخومها وأطرافها مجتمع واحد ، متكافئة اعضاؤه في الحقوق ، متعادلة في الواجبات متماثلة في الاعباء والتبعات ، فلا فارق في شريعة الإسلام بين دم ودم ولا بين جنس وجنس ، ولا بين لون ولون ، ولا بين موطن وموطن ، ولا بين زمان وزمان ، ولا بين طبقة وطبقة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ^(١).

مجتمع واحد يشد بعضه ببعض نسب الكون قبل أي نسب ثم آصرة الطبيعة ورحم المادة ولحمة الحياة وقرى البشرية. ثم هذه الركائز

العبيدة المودعة في كيانه بما هو بشر ، أو في طبيعته بما هو حيوان ، هذه الركائز الاجتماعية من غرائز وعواطف وأحاسيس وأشواق ، وقوى وملكات.

هذا النسب العريق العميق هو الذي يربط المجتمع الانساني بعضه الى بعض في نظر الإسلام. أما الضرورات التي تلحق المرء بعد وجوده وتضطره الى الاجتماع. أما فاقة المرء الى الالتفاف لضمان قوته وضمان كسوته وضمان حاجاته في العيش وحمايته من العدوان ، أما هذه الضرورات فإنما هي مؤكدات يأتي دورها بعد إقامة البناء.

من ذكر واحد وانثى واحدة خلق الله الناس كلهم فلا امتياز لأحد منهم على أحد ، ولا فضل لقييل على قبيل. أما تفريقهم شعوباً وقبائل فحكمته الوحيدة الفريدة هي أن يتعارفوا ، واما الميدان الوحيد للتفاضل بين الافراد وبين الاجناس منهم فإنما هو ميدان التقوى. تقوى الله في السرّ والعلن والانقياد لأوامره في الظاهر والباطن ، فمن شاء سبق منهم في هذا المضمار فليسبق فقد أرصد الجزاء وأتيحت الفرص للناس أجمعين.

البشرية بجميع أصنافها وألوانها مجتمع واحد ، فلا تخضع إلا لرب واحد ، هو بارئها بعد العدم ، ومكثرها بعد القلة ، ومقويها بعد الضعف ، ورافعها بعد الضعة ، وهو منشئها على الحكمة ، وفاطرها على الحب ، وموجهها الى الكمال ، وهاديها بعد الضلال :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾^(١).

والبشرية بجميع أصنافها والوالمها مجتمع واحد فيجب ان تجتمع على عقيدة واحدة وأن تأتلف على دين واحد ، هو نظامها الذي يحكم بينها الأواصر ويوزع الحقوق وينظم الحدود والذي يعدّ الفرد ويتجافى به عن الاثرة ، ويهذب الامة ويعلو بها عن النقائص :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾^(٢).

﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٣).

ولا مكان في هذا المجتمع لأزيد من حكومة واحدة ، ولا مساغ فيه لاكثر من حاكم عام واحد.

حكومة تتمثل فيها وحدة ذلك المجتمع المرتكزة على العقيدة.

وحاكم يتجسد فيه روح ذلك النظام المستمد من الدين.

وعقيدة التوحيد التي يعتنقها المسلم ومبدأ الوحدة الذي ينتهض عليه الإسلام يتناصران على وضع هذه النتيجة وإقامة هذه الدعامة ، فلا يعترف الفرد المسلم ولا المجتمع المسلم بحكومة لغير الله الكبير المتعال الذي خضع له في العقيدة ، ودان له في العبادة ، وأذعن له في السلوك. أما الحكومات الأرضية فلا يخضع لها المسلم خضوعاً دينياً حتى يعترف بها دين الله بنص

١ — الأنبياء ، الآية ٩٢ .

٢ — آل عمران ، الآية ١٩ .

٣ — آل عمران ، الآية ٨٥ .

ومحال أن يعترف دين الله بحكومة لا تنطبع بطابعه الكامل ، وبحاكم لا يمثل روحه التام ، محال أن يعترف دين الله بهما وأن يأمر بطاعتهما إذا لم يكونا صورة شاخصة للدين في كل سلوك ، وفي كل سمة ، وفي كل سجية ، حتى لا يشدا عنه في وجهه ، ولا يصدفا عن تعاليمه في تصرف.

والحكومة التي تتخذ هذه الصفة هي بلا ريب حكومة الله على وجه الأرض والحاكم الذي ينال هذه الكفاءة هو بلا مرأى قيم الله على عباده. وطاعة المسلم لهما إنما هي طاعة لقوانين الله وحدوده وخضوعه لهما إنما هو خضوع لله فيما أمر وزجر.

محال أن يعترف دين الله بهما وأن يأمر المسلمين بطاعتهما إذا لم يكونا كذلك. فإن دين الله موحد لا يقبل التجزئة ، وأحكامه متماسكة ^(١) لا يدخلها التبعض واعترافاته معصومة لا تعرف المحاباة.

نعم دين الله موحد لا يقبل التجزئة ، وأحكامه متماسكة لا يدخلها التبعض ، لأن الغاية التي يستهدفها هذا الدين موحدة لا تقبل الانقسام والانحلال ، فنظام الحكم فيه شطر من نظام الاجتماع ، وقانون السياسة جزء من قانون الخلق ، ودستور المادة جانب من دستور الروح ، ومبدأ الاقتصاد ناحية من تشريعات العبادة ، وأنظمة الحرب فصول من أنظمة السلم ، ومناهج الحياة في الدنيا هي بذاتها مناهج السعادة في الآخرة. وكل واحد من هذه القوانين المتنوعة ظل من ظلال العقيدة ، ونقطة الارتكاز فيها كافة

٢٩٠ الإسلام
هي تلك الصلة العميقة الوثيقة التي تصل العبد بربه وتوكله بحبه ، وتسلم وجهه اليه ، وتعلقه بتدبيره.

فلا فصل في الإسلام لسياسة عن دين ، ولا لحكومة عن عقيدة ، ولا لمبدأ عن مبدأ ، ولا لتشريع عن تشريع. وليس لقيصر في هذا الدين مجال لا يخضع فيه لأمر الله ، وإنما هو حكم الله النافذ في كل صغير وكبير ، وتشريعه المستوعب لكل بادية وخافية ، وحكمته المحيطة بكل خاصة وعامة. وليس أشد خطراً في دين الله من التبعيض فيه ، فيؤخذ منه ويترك كما تقترح الاهواء. إن هذا الصنع ليس تديناً بل هو تقلب مع الشهوات. والله سبحانه يحذر منه أبلغ التحذير :

﴿ أَفْتَوْمُنُونِ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ^(١).

من أجل هذا التوحيد والترابط في انظمة الدين وجب أن يكون الرسول ﷺ ما دام حياً — هو الرأس الأعلى للحكومة المسلمة كما هو الزعيم الأعلى للدين.

ومن أجل هذا التوحيد والترابط فيها وجب أن يخلف الرسول بعد موته من يمثلونه تمثيلاً صادقاً في هاتين الوظيفتين.

* * *

ومبدأ العدل العام هو الآخر يسوق الباحث سوقاً الى هذا الاستنتاج.

هذا المبدأ القويم الذي جرت عليه سنة الله في التكوين ، لما وازن في المكونات بين متنوع العناصر ، وواءم بين مختلف النسب. فركب في الانسان من العناصر ما يعتدل به كيانه ، ومن المقادير ما تتزن به قواه ومن الأجهزة ما ينتظم به وجوده ويضمن به بقاءه ثم يحفظ به نوعه :

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾^(١).

في كل حي وفي كل شيء ليس في الانسان وحده هذا الاتزان الكوني الرتيب وهذا التناسق النوعي المطرد. في كل ما أظهرته يد القدرة وخطته كف الابداع :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾^(٢).

هذا المبدأ المستقيم الذي جرت عليه سنة الله في التكوين ، وجرت عليه كذلك سنته في التشريع فاعتمده الإسلام في صوغ مناهجه ، وعقد به عامة أحكامه ، وكان أول بروز له في هذا الدين أن جعل العدل صفة من صفات الله يعترف بها من يعترف بالإسلام ويؤمن بها من يؤمن بالقرآن.

العدل في نسقه الأعلى وفي أفقه المحيط ، بحيث لا يكدر صفاء ظلم ، ولا يحيط بتخومه حد ، ولا تبلغ مداه قدرة ، ولا يتناهى ببقائه أمد. هذا العدل الكامل الشامل هو صفة الله تعالى التي يدين بها الإسلام ويفتتن باثباتها القرآن :

١ — الانفطار : ٦ — ٨.

٢ — الحجر : ٢١.

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ^(١).

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ^(٢).

ثم سار الإسلام والعدل يحدد به غايته ويرسي عليه قواعده وينيط به تشريعه ، ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ ^(٣) لإقامة هذا المبدأ السوي وإشاعته بين آحاد البشر ، وغرس هذه الفضيلة العامة في النفوس وطبعها في القلوب ونشرها بين الأمم وتعميمها على جميع الأجيال في مدى الأزمان ، لهذه الغاية العظيمة الشاخصة أرسل الله سبحانه رسله بالبينات ، وأنزل معهم الكتاب الذي لم يفرط شيئاً ، والميزان الذي لا يهمل شيئاً ولا يظلم قطميراً.

ليقوم الناس بالقسط.

ليقوم به الناس أجمعون.

هذه غاية الإسلام وهذا جوهر نظامه ولباب دعوته.

القصد والاعتزان طريقة الله المثلى لما برأ المكونات وأظهر المقدرات ، فلم ينقص من كائن خلطاً يفتقر اليه نظامه ، ولم يزد فيه عنصراً يستغني عنه تديره. والقصد والاعتزان طريقة الله المثلى لما وضع الدين وشرع الشريعة ، فلم يهمل وجهاً تستدعيه إقامة العدل ، ولم يبح أمراً يضر به أو

١ — آل عمران : ١٨ .

٢ — النساء : ٣٩ .

٣ — الحديد : ٢٥ .

يقف في طريقه. العدل التام في جميع مناحي الإنسانية الكثيرة ، وآفاقها المتباعدة.

في غرائز المرء وركائزه وعوارضه وأهدافه ونزعاته وملكاتة. وفي أجهزة المجتمع وأعضائه وتخومه وحدوده وعلاقاته وبوائقه ورئيسه ومرؤوسه.

العدل التام الكامل في كل هذه الأنحاء من الإنسانية ، بحيث لا يولي كنفاً منها أكثر مما يستوجب ولا يؤتية أقل مما يستحق.

وفي القرآن الكريم نيف وخمسون آية تنعت دين الإسلام بالاستقامة وتحدد غايته بالقسط والعدل ، وفيه مئتان وأربعون آية تصف لأتباعه مغبة الظلم ، وتندر الظالمين سوء المنقلب.

والقرآن شديد اللهجة حين يذكر الظلم ، رهيب الأسلوب حين يتحدث عن الظالمين ، يكاد يبطش بالجناة وهو يقدم اليهم النذر ، ويكاد يمسك باكظامهم وهو يوجه إليهم القوارع.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ * وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِيبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ * وَسَكُنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ * فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفًا وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ * يَوْمَ تُبَدَّلُ

الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى
الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى
وُجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ *
هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ
أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١﴾.

أقرأت هذه النذر التي تستك لها المسامع من الهول ، وتنخلع لها القلوب
من الوعيد ؟.

انها من أساليب القرآن في وعيد الظالمين.

والقرآن حين يذكر هؤلاء — في الأكثر — يعني بهم هذه الثلاثة من الناس
التي تبدأ بظلم أنفسهم قبل أي أحد ، فتجعل على قلوبها اكنة وفي آذانها وقراً
أن تفقه معنى العدل وأن تستبين محاسنه وأن تسمع دعوة الله اليه ، ثم تندفع
مع الشهوات وتتردى مع البدوات. وفي الآيات الكريمة السابقة ما يدل
على هذا.

هذا هو المنهج الذي استنته الإسلام في تشريعه ولم يتنكبه قيد شعرة.

والنتيجة المحتومة لذلك أن الحكومة التي يقيمها الإسلام يجب أن تكون
حكومة العدل المطلق ، وأن الرئيس الذي يعترف به الإسلام لهذه الحكومة
يجب أن يكون ممثل العدل الاعلى.

حكومة تطبق عدل الإسلام في قوانينه فلا تقسو حين يتسامح الإسلام ،
ولا تلين حين يشدد ، وزعيم يمثل عدل الله في دخيلة نفسه ، فلا يقف حيث

يأمره الله بالانطلاق ، ولا يتحرك حيث يأمره بالسكون ، ولا ينحرف به هوى ولا تهوى به غفلة ، ولا تؤخذ عليه نبوة.

ثم هو إلى هذه اللازمة النفيسة العاصمة لا يجهل امراً من اوامر الله تعالى ولا حداً من حدوده ، ولا حكماً من شريعته. لأنه لو صح أن يجهل شيئاً من ذلك لأمكن أن يقع فيما يخالف العدل ، أو يقرّ ما يبين الحق.

والمخالفة الجاهلة أو الغافلة أمر يتسامح فيه الإسلام مع العامة من الناس ، لأنه دين اليسر والسماح أما هذه المخالفات اذا وقعت من الممثل الاعلى فلا يتغاضى عنها الإسلام ، وما يكون له أن يتغاضى عنها. ذلك أنها لاتعد مخالفات فردية يحمد فيها التساهل. وانما هي مخالفات في ذات القانون نفسه ، وفي صدق تمثيله وضمان غايته فالاغضاء عنها والتسامح في أمرها تحافت لا يحتمله قانون يحترم نفسه ويحرص على بلوغ غايته.

فلا بد إذن من النظر في أمر هذه المخالفات ولا بد من العمل لها والتفادي عن الوقوع فيها.

وسبيل الله هنا أن يمد الفرد الذي يصطفيه لهذه الزعامة بقوة عاصمة تقيه المزالق ، وتعالى به عن النقائص.

بلى هذه هي الثمرة الطبيعية لذلك الاتجاه.

حكومة إلهية تتلقى الأنظمة من تشريع الله.

وخليفة معصوم يستلم أزمة الحكم بتعيين الله.

وحكومة الرسول ﷺ هي النموذج الذي قدمه الإسلام من هذه الدولة ،

وهي الحلقة الأولى من السلسلة المثالية التي أعدها الله لهذه الغاية.

وتوات نصوص الإسلام تعضد هذه النتيجة وتؤكددها ، فالنص يتلو

٢٩٦ الإسلام
النص ، والبرهان يقفوا البرهان. وأمر الامامة أجلي من هذه النصوص
الغفيرة الكثيرة لولا تدخل الاهواء.

نعم كانت حكومة الرسول ﷺ نموذج الدولة الالهية في الإسلام ، وليس
في وسع مسلم أن يجحد هذا الوصف.

ليس في وسع مسلم ان يجحد ان الرسول ﷺ — في حياته — هو الرئيس
الأعلى لحكومة الإسلام ، وليس في وسعه ان يجحد ان ركيزة هذه الولاية انما
هو تعيين الله وعهده.

وليس في وسعه أن يجحد انما زعامة معصومة يسدها وحي الله من
جهة ، وتحوطها عصمة الرسول من جهة اخرى.

وليس في مقدور امرئ مسلم ان يجحد شيئاً من هذا كله بعد أن نطق به
القرآن وأشادت به نصوص الإسلام. والتفسير الصريح لهذا أن الحكومة
الالهية اساس من اساس الإسلام بل وعقيدة من عقائده ، ولا يشك في ذلك
أي مسلم يحتفظ باسلامه.

واذن فأني مساغ لهذه الريبة التي يديها بعض المسلمين في القول
بالامامة ؟ في هذا القول الذي ينفرد به الاماميون. اي مساغ للريبة فيه بعد
ثبوت كل هذا ؟

لابد من الحكومة الالهية. هذا قدر يشترك به جميع المسلمين ويعترفون
به كلهم على السواء.

وقصارى ما ينفرد به الشيعة الاماميون عن اخوانهم من سائر المسلمين :
ان هذه الحكومة الالهية لا يسوغ ان ينقطع أمدها بموت الرسول ﷺ بل يجب

أن تخلد مع خلود الإسلام.

مع خلود الإسلام لأنها قاعدة من قواعده.

ومع بقاء المجتمع المسلم لأنها ضرورة من ضروراته.

ومع استمرار الحياة لأن الحكومة الالهية ضرورة لدين الإسلام ودين

الإسلام ضرورة للحياة.

هذا ما ينفرد به الشيعة الاماميون عن اخوانهم من سائر المسلمين فهل

يصح أن يجعل مثاراً للتهم ؟.

وما ينصع الشيعة اذا اضطرهم طبيعة الإسلام ذاتها الى هذه العقيدة ؟.

وما يعملون إذا قادهم نصوص القرآن وصحاح السنة ودلائل العقل ؟

ما يعملون اذا قادهم هذه الحجج كلها قوداً الى هذه النتيجة ؟.

والعصمة التي يشترطونها في امام المسلمين ، هل تخرج به عن مصاف

البشر وتلحقه بعداد الآلهة كما يشتهي أن يقول المتقولون ؟!.

هل العصمة في ذاتها جزء إلهي ، حتى اذا اشترطناها في الخلافة فقد قلنا

في الخليفة بالحلول ؟! وهل للألوهية أجزاء لتعد العصمة واحداً من هذه

الاجزاء ولتستطيع هذه القرية أن تقف على قدم ؟!.

ألم تشترطها جمهرة المسلمين في رسالة الرسول ؟.

فهلا كانت لها هذه اللازمة هناك ؟ وهلا نقدها أحد هناك بمثل هذا

النقد ؟.

العصمة شرط في رسالة الرسول لدى جمهور المسلمين ، وان اختلفت

فرقهم في تحديد هذا أهو العصمة في عهد النبوة فقط أم العصمة حتى فيما قبل

هذا العهد ؟.

ثم أهو العصمة في التبليغ خاصة ، أم العصمة عن كبائر الذنوب أيضاً ، أم العصمة عن الزيف في كل ما يقول وفي كل ما يعمل وفي كل ما يسر وفي كل ما يعلن ؟

وأخيراً أهو العصمة عن تعمد الوقوع في هذه المهايوي أم العصمة حتى عن السهو والغفلة كذلك ؟.

وشيعه أهل البيت وحدهم يقولون : الشرط في رسالة الرسول وفي امامة الامام العصمة في كل ادوار الحياة من جميع اصناف الذنوب ومن جميع أنواع النقائص ، حتى من الخطأ والغفلة والسهو .

والعصمة رصيد نفسي كبير يتكون من تعادل جميع القوى النفسانية ، وبلوغ كل واحدة منها اقصى درجة يمكن أن يبلغها الانسان ، ثم سيطرة القوة العقلية على جميع هذه القوى والغرائز والركائز سيطرة كاملة حتى لا تشذ عنها في امر ولا تستقل دونها في عمل .

هذه الحصانة الذاتية التي يرتفع بها الانسان الأعلى عن الاتضاع في طبيعته ويمتنع بها عن الانزلاق في ارادته ، ثم عن الانحرافات والالتواءات التي تترسب في منطقة اللا شعور ، وتتحول — كما يقول العلماء النفسانيون — عقداً نفسية تتحكم في دوافع المرء وفي سلوكه وفي اتجاهاته وملكاته ، وتسوقه من حيث لا يريد الى النشوز عن الحق والشروء عن العدل .

هذه الحصانة الذاتية التي توقظ مشاعر الانسان الكامل فلا يغفل وتعتلي بملكاته وأشواقه فلا يتزلزل ولا يكبو ، والتي تكفل له صحته النفسية من كل وجه ، هذه هي العصمة التي يشترطها مذهب أهل البيت في الرئيس الأعلى لحكومة الإسلام .

وفي ظني أنه شرط بمنتهى الجلاء كما أنه بمنتهى الحكمة.

بمنتهى الجلاء بعد أن كشفت مدارس التحليل النفسي حقيقة هذه الرواسب ، وأبانت مدى تأثيرها في سلوك الانسان ووجهته في الحياة ، وبمنتهى الجلاء بعد أن وضعت التربية النفسية الحديثة طرقها لحل هذه العقدة ، وللابتعاد بالنشء عن هذه الأزمات. في ظني أنه شرط بمنتهى الجلاء والوضوح بعد أن سار العلم هذا الشوط وفرغ من تقرير هذه النتائج.

من جراء هذا الضعف المتوطن في طبيعة الانسان حين تتعرض له المغريات والمرديات.

ومن جراء هذه العقد اللاشعورية الخالفة في نفس الانسان من صدماته في الحياة ، وانزلاقاته في الارادة ، وترديه بسبب الجهل أو بسبب الهوى. ومن أجل طبيعة النظام الذي أنشئت لصيانتة الحكومة في الإسلام. ومن اجل غاية هذا الدين الكبرى التي تتصل بها كل جذوره وتستقي منها كل فروعه.

ومن أجل الأدلة الكثيرة الكثيرة التي تجاوزت حدود المثات ودلت على وجوب العصمة في الامام.

من جراء هذه الأمور كلها قالت الشيعة من اتباع اهل البيت عليهم السلام بوجوب العصمة في الرئيس الأعلى لحكومة الإسلام. فهل في ذلك مساغ للرؤية ؟.

ثم ماذا بعد الاستيقان بهذه المجموعة من العقائد ، وبعد الايمان الراسخ بمجملها ومفصلها ، والانقياد الكامل لتوابعها ومقتضياتها ؟.

٣٠٠ الإسلام

لقد شهد البرهان لكل مقطع من مقاطعها بالصدق ووحكمت الفطرة على أكثرها بالثبوت ، واستبان العقل صحة النتائج من أجل صحة الموازين فلا شك ولا ريب في شيء منها أبداً.

فماذا بعد ذلك ؟ وماهي النهاية الأخيرة ؟.

لقد مات من غير من الناس ، وسيفنى الموجود منهم وسيلحق بالقافلة من سيوجد بعد ، نعم وستطوى هذي الحياة وتنطمس معالمها وتعفى آثارها ، فهل هذه هي النهاية الأخيرة ؟

إذن فأين جلبة تلك الأحكام ؟ وأين قعقة تلك الحجج ؟.

الأحكام التي وضعها الشرع والحجج التي أقامها العقل وعضدها الفطرة ..

إن الله حكيم ... ولا حدّ لحكمته.

وان الله عدل ... ولا منتهى لعدله.

وان الله غني .. ولا منقطع لغناه. ولا مرأ في ذلك كله.

والله هو مشرع الدين لهذا الانسان. وفروض الدين انما هي اوامره ، ومحرمات الدين انما هي منهيته ، وحدود الدين انما هي حرماته. ولا ريب في شيء من ذلك كله أيضاً.

فلو قدرنا ان الموت هو النهاية. هو النهاية الكبرى ، التي ليست وراءها منقلب وليس بعدها مصير ؛ لحوى تشريع الله من الحكمة ولحاف عدل الله في الجزاء أو قصرت ملكته عن الوفاء.

وإذن فلا مناص من أن نتظر وراء الموت منقلباً آخر يوفى فيه المطيع ثواب إطااعته ويلقى المفرط جزاء تفريطه وتضييعه.

لامنص لنا من أن ننتظر وراء الموت منقلباً يكون هو النهاية ، مادام الدين حقاً لامراء فيه ، ومادامت عقائده وهداياته صحيحة لا يسمو اليها ريب ، ومادام وجود الغاية الصحيحة هو الفارق بين الفعل العاثر والفعل الحكيم.

نعم. وهذا ما عرفه منكروا البعث أنفسهم ، فإنهم لما أنكروا البعث أنكروا الدين ورفعوا حدوده وأبطلوا أحكامه.

وقد يقول أحد إن الدين انما هو شريعة شرعها الله للمجتمع الانساني ، وحكمة الله من هذه الشريعة هي إقامة المجتمع على أمتن الاسس وأحكم القواعد ، ورفعته الى اكرم مقامات الفضيلة وأكبر درجات الانسانية ، وهذه الغاية الخطيرة دنبوية خالصة يفيدها المجتمع في حياته هذه متى سار على هدى الله الذي شرع واتبع وصاياه التي امر بها. أما من يتردى مع هواه من الأفراد فيصدف عن أحكام الله ويتبع مساخطه ، أما هذا المتردي فيكفيه بئورته التي ينحدر اليها عقاباً وهواناً ، ويبعده عن المهدف الانساني الأعلى حرماناً.

قد يقول هذا احد لينكر ان الجزاء ضرورة لن تتم الشريعة إلا بها ، ولن تنهض الحكمة إلا عليها ، ولرد هذه الشبهة يكفيننا أن نتذكر ان الوجهة الاجتماعية ليست هي الناحية الوحيدة التي يستهدفها دين الإسلام ، بلى هي من الأهداف المهمة فيه وفي كل دين حق ، ولكنها ليست كل ما هنالك. فقد عرفنا فيما تقدم كيف يتعهد الدين كل نواحي الانسان وكيف يسع كل جهاته تقويماً وكل صلاته إحكاماً وكل صفاته إعلاءً.

ومن ظواهر الانسان أن آماله أوسع من حياته ، وهو يعلم بذلك

٣٠٢ الإسلام

حق العلم حين يفكر في تسلسل آماله وتعتقد أسباب الحصول عليها. ومعنى ذلك أن كثيراً من هذه الآمال سوف لا يتحقق له لا في حاضره ولا في مستقبله ، وهي حقيقة يصعب على الانسان جداً أن يذعن بها وأن يقر عليها ، ونتيجة ذلك أن ينطلق في شهواته انطلاقاً قويا لا يقبل الحدود ، ليحقق لنفسه أوفر قسط يمكنه من الآمال. أن ينطلق هذه الانطلاقة الشديدة إذا هو لم يعتقد البعث ولم يخش أمامه جزاءً ولم يحذر من ورائه رقيباً.

ومظالم العباد بعضهم بعضاً ، والدماء التي يسفكها السافكون بغير حق ، والحقوق التي يغتصبها الغاصبون بغير عدل ، والحرمان التي ينتهكها الظالمون دون مبرر ، هذه الأمور التي اهتم الشرع بها فوضع لكل حادثتها منها حداً ، وجعل على كل من يتعدى ذلك الحد حداً ؟ كيف تصان هذه الحدود وكيف تستوفي هذه المظالم اذا نحن لم ننتظر للعدل الأعلى يوماً ، ولم نتوقع لاستيفاء التبعات موقفاً ؟ ويد العدالة في هذه الحياة الدنيا قد لا تستطيع أن تنال الظالم بشيء وقد لا تملك أن تدينه بتبعة.

وبعد فما أنكل الأفراد من عامة الناس عن التزام القانون والقيام بحدوده والحفاظة على تعاليمه متى علموا ان الغاية فيه انما تخص المجتمع أو تخص النوع ، ولا غاية فيه للأفراد ولا رعاية لآحادهم وما اقصر القانون في الملاحظة اذا كان يهدر الفرد إهداراً تاماً لمصلحة المجتمع أو لمصلحة النوع.

وأخيراً فما أبعد القوانين عن غاياتها اذا لم تكألفها عين حارسة على

في ظلال العقيدة ٣٠٣

التنفيذ ، وعقوبة محذورة على المخالفة ، ما ابعد القوانين عن غاياتها اذا لم تكن لها تلك الرقابة الحازمة من بين يديها ، وهذه القوة المرهوبة من خلفها. ان أحكامها لولا هاتان ستنقلب نصائح خاوية ، وإن حكمتها ستتحوّل فلسفة صامتة. وكم في العالمين من يؤمن بالمثالية لأنها مثالية ، ومن يحذر الاسفاف لأنه اسفاف ؟

نعم لا بد لاحترام القانون من الجزاء.

ولا بد للحث على عمل الصالحات من المكافأة.

ثم لامحيص من يوم للدينونة تقاس فيه الأعمال وتنال فيه الغايات وتستوفى فيه التبعات :

﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾^(١).

كما يحتكم الطفل الصغير في ما بيديه من اللعب ، وكما يقيس الأشياء ما يجهل منها بما يألّف ، يستحب بعض الناس أن يحتكم ، ويؤثر أن يقيس !.

إن هؤلاء لازالوا أطفالا وان كبروا وشاخوا ، وحلومهم وأقيستهم لم ترح بعد أطفال الحلوم وأطفال الأقيسة ...

وقد تناول هذا الفريق عقيدة البعث فيما تناوله من الأمور ، فلم يتعد عن هذه الحدود ، ولم يتنكب عن هذه الخطوة.

قالوا : نجد الأنام يموتون ثم لا يعودون الى الحياة ، ومن مات من الأنام رمّت عظامه وتوزعت اشلاؤه حتى تصبح العين منه أثراً ، وحتى يعود الأثر عدماً.

وإذن فلا حياة بعد الموت ولا اجتماع للأجزاء بعد التفرق.

بعيد. بعيد ، ومحال محال أن يحدث ذلك وأن يتحقق. لاننا لم نبصر بمثله أبداً ، ولم نعهد وقوعه في سواف القرون :

﴿ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ^(١).

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبَيِّنُ لَكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مُمْزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ... ﴾ ^(٢).

بعيد ومحال أن نبعث بعد الموت ، وكيف حياة الأجسام وقد عادت هباءً ؟ وكيف تأليف ذراتها وقد ذهبت في فجاج الأرض أشتاتاً ؟ ومن هذا العلم بموضع كل ذرة القدير على ردّ كل هباءة ، الخير بحصة كل عضو منها عند التركيب وبمكان كل واحدة منها قبل التفرق ؟

من هذا القادر المحيط ليرد الأجزاء المتباعدة جسماً ، ويعيد الجسم التالف حياً ؟ :

﴿ إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَأَنْتَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ ﴾ ^(٣).

ويفتنون في احتجاجهم كثيراً ويذهبون بعيداً إذ يقولون :

١ — المؤمنون ، الآية ٨٢ — ٨٣.

٢ — سبأ ، الآية ٧ — ٨.

٣ — الم السجدة ، الآية ١٠.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ * فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾

وكأنهم في قولتهم هذه يحدرون مorte ثانية فهم ينكرون من أجلها حياة ثانية ! وحجتهم هذا التعجيز التافه : فَأْتُوا بِآبَائِنَا.

أتدعون أن الموتى ينشرون لحياة ثانية ، ينشرون بعد موتهم الاولى ؟
أتقولون هذا جادين غير هازلين ؟.

إن هذه دعوى غير عسيرة البرهان. فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

أحيوا لنا من غير من أسلافنا لنعرف مبلغكم من الصدق.

وقد جمع القرآن كثيراً من أقاويلهم وعرض أنواعاً من حجاجهم. ولعله

أما عني بذلك ليرى الانسان سقطته في التفكير إذا جمح به التعصب.

متى كان الألف قاعدة ثابتة تحكم بموجبه الأشياء وتناط بها صحة

العقائد ؟!

ثم متى كان الاستبعاد دليلاً على الاستحالة ؟!

لقد كان المرء جنيماً في بطن امه ، وكان قبل ذلك نطفة وعلقة. افليس من

المضحك ان يقول وهو في تلك الادوار — ولنفرضه هناك عاقلاً له رأي وله

قول — أليس من المضحك ان يقول في تلك الأدوار : ليس لي مستقبل يأتي

وراء هذا الحاضر ، لأني لم أجد أثراً لهذا المستقبل ؟.

﴿أَيُخْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنَّنِ تَجْمَعُ عِظَامَهُ﴾ ^(١) بعد تمزقها بالموت وصيرورتها رميماً فهو لهذا الحسبان ينكر البعث ويحيل وجوده ويحدد توابعه ؟

إن كان هذا هو حسبانته وهذه هي تعلته فقد اخطأه الوهم وأضله التعليل.

ولم لا نجتمع عظامه ؟ ولم يخال هو ذلك ؟ ولم ينكر قدرتنا عليه ؟.

﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن تُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ ^(٢).

أرأيت البنان بدقة تركيبها وبراعة تصويرها ، حتى لا تجدها في انسان تشبهها في انسان آخر ؟ أرأيت البنان بخطوطها ومدوراتها ومميزاتها ؟ إننا قادرون على أن نسويها بعد العدم ونضم اجزائها بعد التفرق ، حتى ليست تختلف عن وجودها الأول في مادة ولا في شكل ولا في مقدار.

هكذا يجيبه القرآن على حسبانته.

إنها دعوى تفرع بدعوى. ولكن دعوى القرآن ليست مجردة عن الدليل ، فلقد علم الانسان بفطرته أن له خالقاً سواه بعد العدم فلن يشك أبداً في قدرة ذلك الموجد ، وليس أدل على القدرة من الإيجاد ، إذن فلا مسرب لذلك الوهم الى يقينه ، وإن ذهب وهمه الى فهو وهم زائل غير مستقر ، تذهب به وبآثاره لفتة واحدة لمظاهر القدرة الموجودة ، فليس وهما ثابتاً يوجب الحيرة للانسان ، ولم يكن هو العلة المباشرة لإضلاله.

١ — القيامة الآية ٣.

٢ — القيامة الآية ٤.

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرَهُ أُمَامَهُ﴾^(١) لهذه البغية ينكر الانسان النشور وينكر الجزاء وينكر توابعهما ولوازمهما. يريد لينطلق في فجوره ، ويمعن في غروره فلا يلد له ان تقيد إرادته شريعة أو تحول دون شهواته عقيدة. يريد ليندفع مسعوراً منهوماً فلا يلقى أمامه رقيباً من دين ، ولا يحشى من ورائه حسيباً من جزاء ، فهو يخلق الوهم ويحدد البعث ، وإذا لم يكن بعث فلا جزاء ولا حظر ولا خشية ولا رقابة. من أجل هذا القصد ينكر الانسان النشور وما يتبع النشور ... ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾^(٢).

يسأل هكذا كمن لا يعنيه من أمر القيامة شيء ، وكأن مواقف هذا اليوم العظيم وشدائده إنما اعدت لسواه ، أو كأنه خرافه يسأل عنها للتندر ، ويتعمد ذكرها للمز.

هذه خطة المرء حين تناول عقيدة البعث في التفكير.

وحين فلسف إنكاره فهل ارتفع عن هذه الحطة ؟.

الواقع أنه لم يستطع ذلك وان ادعاه وأصر عليه وأمعن في إصراره.

أنكر الروح لينكر بقاءها بعد الحياة ثم عودتها الى الجسم بعد الموت.

وانكر اتساع العناصر الموجودة في الكون لحياة اخرى بعد انقضاء

الحياة الاولى.

وأحالتها لأوهام دارت على لسان القديم وعدلت في فكرة الجديد.

صنع كل هذا ليثبت أن موت الانسان هو منقلبه الأخير. ثم أحرصه أن

١ — القيامة الآية ٥ .

٢ — القيامة الآية ٦ .

قام العلم. العلم التجريبي الحديث يذري شبهاته واحدة واحدة.

أما بعد فان الدلائل التي أثبتت ضرورة وجود الدين ، أثبتت ضرورة النشور وضرورة الجزاء ، لأن الدين لن يكون صحيحاً اذا لم تتحقق له غاية.

وان الشواهد الكثيرة التي أبانت صدق الإسلام أبانت كذلك صدق هذه الدعوى ، لأنها اصل من اصوله وركن من اعظم اركانه.

وإن الكتاب الذي دل باعجازه على نبوة محمد ﷺ ، وعلى صدق دعوته دلّ باعجازه ايضاً على صحة هذه العقيدة لأنه اعلن بها في اكثر سور و ملح اليها في اغلب آياته.

* * *

ويحاول بعض الكتاب ان يقلل من جدوى هذه العقيدة ، عقيدة الجزاء الأخرى. يحاول ان يقلل من جدواها ، ومراده بالطبع ان يتخذ من ذلك وسيلة لانكارها.

يقول : « إن الدوافع التي يستعين بها هذا الضمان اقل تأثيراً من الدوافع التي يتأثر بها السلوك من ناحية رقابة الرأي العام ، لأنه يعتمد على جزاء وعقاب مؤجلين ، وقد يتعرضان للشك في قيام الميزان الذي سيحاسب الناس به .»

كذا يقول هذا الكاتب ، وهو يفرض شيئاً غير ما تفرضه الأديان في عقيدة الجزاء ، وغير ما يفرضه دين الإسلام منها بالخصوص.

ان الإسلام يفرضها عقيدة يقينية ثابتة راسخة لا بد من الاستيقان بها ، ولا بد من الايمان الموطن المؤكد قبل التوجه لأي عمل تأمر به الشريعة ،

في ظلال العقيدة ٣٠٩
وقبل العزيمة على أي سلوك ينصح به الدين ..

عقيدة يقينية ثابتة ، جحودها يوجب الكفر ، والامتراء بها يقتضي الخروج عن الدين واستحقاق العذاب المهين. ونصوص القرآن والسنة تتعهد تنمية هذه العقيدة وترسيخها وتوجيه المشاعر والعواطف نحوها ، وهي تكرر هذا وتفتن في تكراره وفي ربط الأحاديث به عند ذكر كل حكم وعند تقديم كل إنذار. فلن يغفل المسلم أبداً ولن يشك ولن يجحد. وإذا كان العقاب مؤجلاً فإن فكرة هذا العقاب ورقابة المحاسب العظيم الذي لا يغفل لحظة ، ودقة الكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، والضمير اليقظ الواعي الذي ايقظته هذه العقيدة وأرهفت حسّه واطلقت حكمه ، كل هذه تراود فكرة المسلم في كل آن وتحاسب ارادته عن كل خطوة.

فمتى تكون الغفلة إذن ، ومتى يكون الشك ؟.

* * *

وطرائق القرآن في الاستدلال على هذه العقيدة هي طرائقه في الاستدلال في كل موضع ، وحججه عليها هي حججه في الاشراف وقوة العرض وبداهة المقدمات ، والقرآن حين يحتاج لإثبات أمر لا يبقى فيه منفذاً للشك ولا مورداً للانتقاض.

والباب الطبيعي الذي ينفذ منه العقل الى هذه العقيدة ، والسند القوي الذي يتكئ عليه في تثبيتها هو فكرة الغاية .. الغاية التي بها يفترق الفعل الحكيم عن الفعل العاثر.

ينظر الانسان في كل ما حوله من اشياء هذا الكون الفسيح الأطراف البعيد الاكناف ، في كل ما حوله مما دق حتى انحسر عنه البصر لضآلته ، أو

عظم حتى عجزت الرؤية أن تحيط به لترامي أبعاده ، مما قرب حتى كاد القرب أن يدبجه في حدود الرائي ، أو بعد حتى أوشك البعد أن يلحقه بالوهم .
في كل موجود يزحم هذا الفضاء الرحب ، وفي كل قانون يحكم هذي الموجودات المتنوعة .

ينظر الانسان في كل هذه فلا يلقي إلا شيئاً يتجه إلى غاية ... إلى غاية عتيقة أعدت هي له وأعدّ هو لها منذ التكوين :

﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ^(١) .

فلماذا يجهد الانسان أن ينكر الارتباط بالغاية حين يعود به التفكير الى ذاته ؟ ﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ ^(٢) أيحسب هذا لنفسه وحده دون بقية موجودات الكون . ودون سائر منشآت الطبيعة . أن يترك سدى هكذا مهماً دون غاية ولا نظام ولا رابط ولا ضابط ؟!

لقد وجد الانسان واستقام كيانه والتأمت عناصره على أدق حكمة وأتم وضع وأحسن تصوير ، وهو غير مختار في شيء من ذلك ، ولا محيص من أن تكون لوجوده هذا المتقن غاية لأن الغاية — كما قلناه مكرراً — هي الفارق بين العبث والحكمة . ولا محيص من الطريق التي يسلكها الى تلك الغاية ، وقد استوفينا شرح هذا في مستهل الكتاب فليعد إليه القاريء إذا شاء . وحركة الانسان هذه التي نريد أن نزهها عن العبث اختيارية ولا شك ،

١ — الاحقاف ، الآية ٣ .

٢ — القيامة ، الآية ٣٦ .

في ظلال العقيدة ٣١١
فغايتها غاية اختيارية ولا شك ايضاً ، والسبيل المؤدية الى الغاية سبيل
اختيارية.

واذن فلا محيد من الجزاء ، ولا محيد عن البعث ولا محيد عن اليوم الذي
يلقى فيه كل أحد جزاء ما عمل.

أيحسب الانسان أن يترك سدى ؟ هذا هو مساق البرهان في هذه الآية ، استفهام
فيه معنى الانكار ، وطي له دلالة النشر ، وإن بعض منكري النشور ليذهب
هذا المذهب ، ويعتبره رأياً ويتخذ الايمان به عقيدة ، ويصر على التمسك به
ويتهالك في الدفاع عنه ولكن الآية الكريمة تسمى ذلك حسباناً ، وتخرجه
مخرج التردد والريبة ، فما كان للانسان وهو المفكر العاقل أن تتردى به
الأوهام الى هذا الحضيض ، ولئن زعم هذا زاعم فان كل صامت وناطق في
الوجود يرد عليه هذا الزعم.

هذه كبرى القياس كما يقول الأساتذة المنطقيون ، وهي مطوية يدل
عليها الانكار ، أما بقية المقدمات التي يفتقر اليها تقويم الدليل فهي جلية
وهي ليست موضعاً للجدل.

وتمثل هذا الايجاز وبظير هذا التخريج يعرض القرآن دليل الغاية هذا في
سورة (المؤمنون) فيقول :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ^(١).

أما في سورة الروم فانه يذكره في شيء من التفصيل ، فقد قال في معرض
الحديث عن غفلة أكثر الناس :

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ * أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (١).

هذا القانون العام المتبع في السموات وفي أجرامها ومداراتها ، وفي الأرض وطبقاتها وعناصرها ، في كل ما تقله الأرض وما تظله السماء من حي وجامد ونبات ، هذا القانون الذي لا يستثنى منه شيء من هذا العالم الكبير ، قانون الارتباط بالغاية والاتجاه إليها ، ألم يتفكر هؤلاء الغافلون عن الآخرة ، الجاحدون للنشور ، ألم يتفكروا في أنفسهم أنهم أشياء كهذه الأشياء يعمهم ما يعمها من حكم ، ويشملهم ما يشملها من قانون ؟ أو لم يتفكروا ان فاطر هذه المنشآت الحكيمة يمتنع عليه أن يخلق الانسان بلا غاية وأن يتركه سدى دون وجهة ، لأنه حكيم يمتنع عليه العبث ، كريم لا يجوز عليه البخل ، عدل يستحيل منه الظلم ؟ أو لم يتفكروا في ذلك لعلهم ينتبهون من الغفلة ويقلقون عن الجحود.

وفي سورة (ص) يعرض القرآن هذا الدليل ايضاً إلا أنه هاهنا اوفى شرحاً وأكثر تفصيلاً من هذه ومن تلك.

﴿... إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿١﴾.

سبيل الله واضحة المعالم ممهدة المسالك ، وهي مؤدية بسالكها الى الفوز ولا شك. أما الذين يضلون عن هذه السبيل فانهم يستحقون العذاب الشديد ، واستحقاقهم ذلك ليس لضلالتهم عن السبيل فحسب ، بل لانهم نسوا يوم الحساب ، ونسيان يوم الحساب خطيئة من شأنها انها تضعاف الخطايا وتضخم عليها الجزاء.

هؤلاء ناسون ليوم الحساب لامنكرون ، غير ان نسيانهم إياه نسيان عملي ، والنسيان العملي ليوم الحساب هو الخطر الماحق الذي يصاب به المكبون على الآثام المولعون بالاجرام.

هم ناسون له في العمل ، ولعلمهم ذاكرون له في الشعور والعقيدة ، وما كان يوم الحساب لينسى ، وما كان يوم الحساب ليغفل ، وإن قانون الارتباط بالغاية ليذكر من نسي وينبه من غفل.

فالسما والأرض وما بينهما من موجودات لم تخلق جميعها ولم تترتب طرائقها ولم تقم حركاتها ، ولم تجعل قوانينها ، لم يوجد جميع ذلك فيها ولا في أعضائها إلا بالحق. إلا لغاية ، والحكمة والقصد والاتقان والارتباط بالهدف الأعلى امور بادية في كل وجه وعلى كل شيء ، فلا ينبغي ان تنكر ، ولا ينبغي ان يغفل عنها ، وليس للانسان بمفرده سبيل غير هذه السبيل.

بلى هنا من ينكر ذلك ... من ينكر الارتباط بالحكمة والارتباط بالهدف ... من يقول ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا

الدهر.

حياة وموت ...

هذا هو القانون ، وهذه هي الغاية.

كما تستودع البذرة في الأرض فتنبو ثم تفرع وتثمر ، ثم تموت وتعود هشيماً ، يزرع الانسان كذلك نطفة ، ثم يولد طفلاً ، وينمو ويشب ، ويقتنر ويلد ، ثم يموت ويصبح رميمًا ، وينتهي خبره ويمحى أثره. ثم لا شيء. ثم لا غاية غير هذه الغاية.

هنا من يقول ذلك. والقرآن الكريم يدعوه ظناً هنا ، ويدعوه ظناً كذلك في آيات اخرى ذكره فيها ، يدعوه ظناً ، إذ ليست له حرمة العلم ، وليست له حرمة الفكر الصحيح ، وليست لقائله حرمة المفكر الحرّ. وما رأي يعصب صاحبه عينيه عن النور ليرى ، ويغلق فكره عن البرهنة ليخال ؟!.

ليس هذا ضلالاً في العمل ، وإنما هو ضلال في العقيدة وتبلد في الشعور.

هو كفر ، وويل للذين كفروا من النار.

ليس من الحكمة أن ينشأ موجود لا لغاية. وليس من الحق أن يترك الانسان لا لرشد ، وليس من العدل أن يجعل المؤمنون العاملين للصالحات والكافرون المفسدون في الأرض سواء في العقبي ، سواء في الجزاء.

إن الله خلق هذين الفريقين من الناس على السواء ، وآتاهما التكليف الموجبة للسعادة والفوز على السواء ، وأتاح لهما الفرص الكافية لبلوغ الغاية على السواء ، فآمن المؤمنون برهم واتبعوا مرضاته عن بينة ، وحسد

في ظلال العقيدة ٣١٥
الجاحدون به وارتكبوا مساخطه عن يئنة ، وليس من العدل ولا من الحكمة
أن يكونا سواءً في الجزاء.

ودليل القدرة.

القدرة المطلقة المهيمنة التي لا يعرفها وهن ، ولا يقفها حد ، ولا يتناهى
بها أمد ، والتي ابتدأت الأشياء لا من شيء ، وصورتها لا على مثال ، ثم لم
يعجزها كون ، ولم تستظهر بوزر ، ولم تستعن بآلة ولا باجالة فكر ولا بسابق
تجربة.

القدرة التي ليس كائن اولى بها من كائن ، ولا مكان ادنى اليها
من مكان ولا حين انسب بها من حين ، ولا معقد ابطأ عليها من
بسيط.

القدرة الكاملة الشاملة ، وما هذه السماوات بما لها من نُظْم وتدير ، وما
هذه الأرض بما فيها من خلق وتقدير ، وما هذه المنشآت الكونية بما فيها من
بداعة التكوين وبراعة التصوير ، ما هذه المخلوقات العجيبة الا ظل من
ظلالها وقبس من شعاعها.

هذه القدرة الفائقة الغالبة لا يمكن البتة ان تعجز عن إعادة الحياة بعد
الموت.

لا يمكن ذلك مطلقاً : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾.

ان الادلة مبثوثة في كل وجهة وان الدلالة مستبينة لكل ناظر فعلام الشك اذن ، وفيم الجدل ؟!.

وانه لاسفاف في الحكم وسفه في الرأي ومناقضة في القياس ان يحس المرء دلائل هذه القدرة ملء الاكوان وملء الامكان ثم يرتاب ويتردد !!.

وما خلق الناس وما اعادة الحياة ازاء قوة قدرت الافلاك وانشأت الأملاك ؟ ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

اجل وما حياة بعد موت ، بل وما حياة قبل موت إزاء هذه القدرة المهيمنة المسيطرة ؟.

انها كلمة من كلماتها ، واشعاعة من اشعاعاتها :
﴿مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٣).
والكون كله كلمة وإشعاعة !!

كلمة تصدر من قائلها فلا تتخلف ، ويمتنع ان تتخلف :
﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٤).
ما أقلق فاء الجواب هنا ، وما أجمل موقعها في الوقت ذاته.
ما أخرج موقفها ، إنها تروم أن تعيق المعلول عن علته فلا تملك !.

١ — الاحقاف : ٣٣.

٢ — المؤمن : ٥٧.

٣ — لقمان : ٢٨.

٤ — النحل : ٤٠.

وما أجمل موقعها ، أنها توضح في التابع مفهوم التبعية ، وتعلن فيه سمة الخضوع والانقياد.

لأحميد للتابع من أن يخضع.

ولأحميد له من أن يتأخر عن متبوعه قيد خطوة.

إن هذا التأخر شعار العبودية الذاتية ، ولا بد من اعلان هذه ، ولا بد من الاعتراف بها.

وصور هذا الدليل في الكتاب الكريم متشابهة متقاربة ، فالصورة السابقة التي عرضها في سورة الاحقاف هي ذات الصورة التي يظهرها في سورة سبأ ، والتي يقدمها في سورة الاسراء ، ولا اختلاف بينها إلا في شيات يوجها العرض ، وسمات يستدعيها السياق.

أما في سورة يس فانه يتحدث عن الانسان هذا الخصيم المبين الذي يغفل حتى عن نفسه وهو يجادل عن هواه ، يتحدث عن هذا المخلوق المتهافت فيقول :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾^(١).

هكذا يتديء العرض. يحيي العظام من أنشأها أول مرة. من أنشأها من نطفة ، فهل يشك أحد في استطاعته ؟

وقدرة هذا الخالق مطلقة عامة لا تحصرها حدود ولا تقام حولها سدود ، فهو بكل خلق عليم ، بكل خلق ، وبكل مخلوق. فلا تغيب عن علمه ذرة من هذا الرميم. من هذا الرميم الذي كان قبل قليل عظاماً ، وكان قبل هذا جسماً ، وكان حياً وكان انساناً ناطقاً ، وكان قبل كل أولئك تراباً.

لا تغيب عن علمه مواضع هذه الذرات كلها من السموات أو من الأرض بعد الانفصال ، ولا تغيب عن علمه مواضعها من الكائن قبل التحلل ... فهل يشك الانسان بعد ؟ ..

والشجرة الخضراء التي تقطر بالماء كيف يجعل منها ناراً محرقة تأكل اليايس والرطب ؟.

أليس هذا أمراً عجباً ؟!

ألا يدل على قدرة فائقة تأمر فلا تعصى ، وتقدر فلا تخالف ؟!.

والسموات والأرض هذان الينبوعان العظيمان للمدهشات ؟!. وما فيء العلم يكشف كل يوم من عجائبهما جديداً ثم يتطلع الى خفي. السماوات والأرض وعوالمهما التي لاتحد ، وعجائبهما التي لاتحصى ألا يقبلهما هذا الانسان اللجوج دليلاً واحداً على قدرة جبارة وعلم محيط ؟

أليس القادر على انشاء هذه المنشآت قادراً على اعادة الحياة بعد

الموت ؟

كيف يعي وكيف يعجز ؟

وكيف يؤوده وجود أو حفظ موجود ؟.

وإنما هي إرادة.

وإنما هي اشراقية.

وإنما هي زجرة ، زجرة واحدة ، فإذا كل شيء قائم. وإذا كل شيء

شاخص. وإذا كل شيء مستنير ! :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

وفي سورة الواقعة بسط لهذا الدليل واستعرض لبعض مجالي القدرة

العظيمة : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * ...

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ؟ .

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ؟ .

أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ

الْمُنْزِلُونَ ؟

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ

الْمُنْشِئُونَ ؟ ﴿ ^(١) .

إن هذه كلها مجالي لقدرة لا تنهاى وأدلة على قادر لا يحد علمه ولا

يضعف سلطانه.

وفي سورة الرعد وفي سورة المؤمنون وفي مواضع أخرى عديدة تذكر

هذه البرهنة بين إجمال وتفصيل.

والنشأة الأولى ؟.

إنها هي موضع الغرابة ، وإنما هي مثار العجب ، فليكرها من يولع بالانكار .

هي أحق بالاستغراب وأدعى للتعجب ، فهي أخرى بالوجود إذا لم يكن له محيص من الجحود .

إنسان ينشأ من لاشيء ... !

من تراب ... !

من نطفة ... !

من جرثومة منويّة صغيرة لا تدرك بالطرف .

لا تدرك إلا بمجهر .

إلا بآلة تضاعف حجمها أضعافاً كثيرة .

تلتقي ببويضة أكبر منها في الجرم ، أكبر منها كثيراً فإن العين المجردة تستطيع ان تراها ^(١) تلتقيان في قرار مكن ، فتتحدان وتتطوران ، وتقع

١ — فالخلية المنوية البشرية تتراوح في الطول بين خمسين وستين ميكرون (والميكرون) جزء من الف جزء من الملمتر ، فلا تراه العين المجردة مطلقاً .
واما بويضة المرأة فيمكن رؤيتها بالعين المجردة ولكن بصعوبة . الزواج المثالي
تأليف الاستاذ فان دفلد ، وتعريب الدكتور محمد فتحي ص ٢٣٤ .

وفي ص ٢٣٧ من المصدر نفسه : (ويقذف في كل جماع في المهبل =
= ما يتراوح عدده بين ٢٠٠ مليون و ٥٠٠ مليون خلية منوية تموت جميعاً
عدا خلية واحدة تسبب الحمل ، ويحدث هذا دائماً في كل جماع الا اذا تكررت
مرات الجماع بسرعة بعد قذف منوي سابق) .

وفي كتاب الوراثة والبيئة تأليف الدكتور علي عبد الواحد وافي ص ١٥ :

في ظلال العقيدة ٣٢١

المعجزة ، ويخلق الكائن الغريب الذي يجهد لتعرّف أسرار الكون ، وأسرار الابداع ، وأسرار النطفة التي منها خلق ، والسبل التي فيها درج ، والطرائق التي بها اكتمل ، واسرار نفسه ، وأسرار جسمه ، لحمه ودمه ، وعصبه وقصبه واليافه وغدده ، واجهزته وانسجته وجزيئاته وخلاياه. والذي يسخر قوى الطبيعة. ويفسر غوامض التكوين ، ويمضي دائباً جاهداً يتعرف ويفسر ويستولي ويسخر.

إنها هي موضع الغرابة حقاً ، وإنما هي مثار العجب ، فلينكرها الانسان إذا لم يكن له محيد من الانكار.

غير أن المعجزة وقعت ولا شك في وقوعها. فقد وجد الكائن ، وحقت الكلمة ونفذت المشيئة .. فيماذا يمتري الانسان إذن ؟.

أباعداد الحياة له إذا طراً عليه طارئ الموت ؟.

أبالنشأة الثانية بعد ان ايقن بالنشأة الاولى !

ان هذه سقطة لا تليق بمفكر !

ومن ذا يرتاب في أن القادر على الابتداء قادر على الاعادة ؟!

من يرتاب في ذلك من العقلاء وان الحكم فيه لفي حدود البداهة ؟

والانسان يذهل عن نشأته الاولى حين يشك في نشأة الأخرى ، والقرآن يذكر من ناسياً أو ينّبّه غافلاً حين يقول :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ *

« يبلغ قطر البويضة جزءاً من مائة وخمسة وعشرين أو مائة وثلاثين جزءاً من البوصة. وخلية الذكر اصغر منها بثلاثمائة ألف مرة ».

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ... ﴿١﴾.

أو حين يقول : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا *
أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ﴾ (٢).

ألا يتذكر فيستريح فان الشك عناء لاتتحمله النفوس المتزنة ؟.

ومن الناس من لا يؤمن بالحق ولو فاجأته بالف برهان.

لا يؤمن لأنه يتلذ بالشك ويتشهى الجدل. واعسر الادواء داء يقلب
حسن المريض وينتكس بشعوره حتى يصبح لذة من لذائذه وشهوة من
شهواته ... واكثر ادواء النفس من هذا النوع الفاتك. وشهوة الجدل طبيعة
منكوسة مقلوبة غصت بالعلم فاستساغت الجهل ، وشرقت بالبرهان
فاستمرأت الجدل !!.

من الناس من لا يؤمن لا لشيء ، إلا انه لايهوى الايمان ولا يستلذ
طعمه. فاذا صدمته قوة البرهان لم يزد على أن يحرك رأسه حركة مبهمة
مجهولة لا يدري ما معناها. فلعلها حركة اضطراب للمفاجأة. ولعلها حركة
عناد اكتظت به النفس فهو يروم التنفيس ، ولعله حركة تصديق مباغتة من
حيث لا يشعر ومن حيث لا يريد ، ولعلها مزيج من كل أولئك فكل أولئك
يطلب أن يكون ..

﴿ وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَلَيْسَ لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ
كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ

١ — يس : ٧٨ — ٧٩.

٢ — مريم : ٦٦ — ٦٧.

في ظلال العقيدة ٣٢٣
مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِصُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ
وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿١﴾.

أرأيت هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ، بغتهم البرهان القويّ الدامغ
فانغصوا رؤوسهم ، وانغاض الرأس هو تحريكه استهزاءً أو تعجباً كما يقول
المفسرون. أو لمعنى سواهما كما قد يفهم من الملاحظات.

وهذا التترل المفاجيء السريع على ماذا يدل ؟.

فلقد كانوا باديء بدء مصرين خصمين ، وكانت لهجتهم في الخصام
عنيدة شديدة ، وها هم الآن وبعد فترة جد قصيرة يسألون هذا السؤال
الصادر الحائر عن ميعاد البعث (متى هو ؟) كمن قد آمن بالبعث فهو يسأل
عن ميعاده !.

لعل الجواب أذهلهم عن أنفسهم وعن المخبات الكثيرة التي شحنت بها
صدورهم وملئت بها آفاقهم. لعل الجواب أذهلهم عن ذلك فكانت الحيرة
وكان السّدر ، وكان الاضطراب المفاجيء والسؤال المرتبك.

وجواب هذا السؤال الغامض الحائر يجب ان يكون من هذا النوع الذي
يملاً قلب السائل فزعاً ويزيده ذهولاً ، من هذا النوع القصير الحازم يدي
يوم البعث من السائل ويضع أهواله بين عينيه.

عسى أن يكون قريباً.

عسى أن يكون قريباً فلا بد من الحذر ، ولا بد من اخذ الأهبة.

وما يدري الانسان ؟ لعله في آخر برهة من حياته ، وإذا انتهت به الحياة

فقد وقف على ابواب البعث وحضر أول أهواله .

هكذا يساق برهان النشأة في هذه الآيات موجزاً لاتفصيل فيه .

فطركم أول مرة ..

أنشأها أول مرة ..

هكذا يساق حين يراد به تذكير ناس أو تنبيه غافل . اما اذا استحکم

النسيان وضربت جذوره وامّحت آثار العلم واستحال التذكر فلا معدى عن التفصيل .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِّتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ... ﴿١﴾﴾

وعلام ترتابون في أمر البعث ؟ ولم تمثرون ؟

ألأنكم ستكونون ترابا بعد الموت ؟

تراباً ؟

ولم يستحيل إن يكون التراب نواة حياة ومبدأ تكوين انسان ؟ .

ألم تكونوا تراباً من قبل ، ثم أصبحتم أحياءً وأناسي ؟ .

ولا أعني نشأة الانسان الأول فنسبنا الى التراب أقرب من ذلك وأقصر .

من التراب يتكون النبات ، ومن النبات يتغذى الحيوان ومن لحم

الحيوان وثمار النبات يتغذى الانسان ، ومن عصارة الأغذية تتكون النطفة التي منها نخلق والخلية التي عنها تتطور.

وكلتا النشأتين ضم عناصر وتأسيس خلايات ثم إقامة بناء ونفخ حياة .. وفارق الشاة الأولى هو هذا التطور الذي خضع له الكائن .. هذا المدرجة التي منها عبر ، والسلم الذي فيه ارتقى .. كان تراباً ، وهذه جزيئاته الأولى. ثم كان نطفة ، وهي مادته القريبة. فكان علقه.

فكان مضغة.

ثم تم البناء ، وقام الهيكل ، ونفخت الروح. وخرج طفلاً يتسم للدنيا ، وبلغ أشده يكدح فيها ، ومرت به أدوار الحياة وتناقلته نواميسها وتلاقفته تياراتها.

إذن فالنشاة الأولى أشد تعقيداً وأعسر متناولا من النشاة الثانية.

أعسر متناولا في المقاييس البشرية ، لا في قدرة الله عز اسمه ، حيث تبطل الحدود ، وتضل المقاييس ، تتساوى النسبة فلا شيء أصعب من شيء ولا تكون أيسر من تكوين.

من تراب. ثم من نطفة. ثم من علقه. ثم من مضغة تجمد وتشتد وتتصور عظاما وتكسى العظام لحماً. هذا السلم الذي يرقاه التراب ليصير إنساناً وبتعبير آخر أدنى الى الصواب ، يرقاه الانسان النطفة حتى يكون الانسان الطفل والانسان القوي الأيد. فان النطفة تحوي خلاصة الانسان وخلاصة صفاته وسماته واستعداداته وموروثاته.

هذه حقيقة قررها العلم الحديث واثبتتها تجاربه ومشاهداته فلا مراء

فيها ولا لبس ، وفي القرآن الكريم :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(١).

وموضع الاعتبار من هذا الوحي الكريم هو قوله جعلناه نطفة. جعلنا الانسان هذا المخلوق الذي أنشأناه جنسه من قبل فابتدأناه من سلالة من طين. جعلنا الانسان هذا بخصائصه وفوارقه نطفة في قرار مكين ، وأعددنا له المنهاج الطبيعي الذي لا يحور ، فارتقى الانسان النطفة وارتقت معه الخصائص والفوارق فكان علقه ثم كان مضغة ، ومر في طريقه دائباً لا ينحرف ولا يتأخر ، ولا يكل ولا يهدأ حتى إذا أعدته الطبيعة للهدف ، وأدنته الرحلة من الغاية أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين.

أما كيف اتحدت الجرثومتان (جرثومة الذكورة وجرثومة الانوثة) فكانتا خلية واحدة تحمل خصائص الكائن وخوارق التكوين وعجائب القدرة فهذا ما أدع بيانه الى الدكتور الكبير (الكسيس كارييل) في كتابه (الانسان ... ذلك المجهول).

« وفي وقت الحيض ينفجر الكيس المشتمل على البويضة ، ثم تبرز

في ظلال العقيدة ٣٢٧

البويضة فوق غشاء بوق فالوب ، فتتقلها السيليا (الأهداب) المتحركة للغشاء الى داخل الرحم وتكون نواتها قد تعرضت في تلك الأثناء لتغيير هام. ذلك أنها تكون قد قذفت بنصف مادتها — أو بعبارة أخرى — بنصف كل كروموسوم ، وعندئذ يخترق الحيوان المنوي سطح البويضة ، وتتحد كروموسوماته التي تكون قد فقدت أيضاً بنصف مادتها بكروموسومات البويضة. وهكذا يولد مخلوق جديد. إنه يتألف من خلية واحدة طعمت فوق مخاط المهبل ، وتنفصل هذه الخلية الى جزئين ثم يبدأ نمو الجنين » ^(١).

وأما هذه الخلية الواحدة المطعمة تحتوي على جميع صفات الكائن وجميع سماته واستعداداته وموروثاته فقد تحدث عنه الاستاذ (أ. كريسي موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك فقال ^(٢).

« كل خلية ذكراً كانت أو أنثى تحتوي كروموزومات ^(٣) وجينات (وحدات الوراثة) والكروموزومة تكون النوية (نواة صغيرة) المعتمدة التي تحتوي الجينة ، والجينات هي العامل الرئيسي الحاسم فيما يكون عليه كل كائن حي أو إنسان. والسيتوبلازم ^(٤) هي تلك التركيبات

١ — (الانسان ... ذلك المجهول) تعريب الاستاذ شفيق اسعد فريد. ص ١١٥.

٢ — انظر كتاب (العلم يدعو للإيمان) ترجمة الاستاذ محمود صالح الفلكي ص ١٣٧.

٣ — يقول المترجم : الكروموزوم هي وحدة المادة العضوية والعامل في نقل الصفات الوراثية.

٤ — ويقول : السيتوبلازم هي المادة البروتوبلازمية التي حول نواة الخلية.

الكيمائية العجيبة التي تحيط بالاثنتين. وتبلغ الجينات (وحدات الوراثة) من الدقة أنها — وهي المسؤولة عن المخلوقات البشرية جميعاً التي على سطح الأرض من حيث خصائصها الفردية واحوالها النفسية وألوانها وأجناسها — لو جمعت كلها ووضعت في مكان واحد لكان حجمها أقل من حجم (الكستبان).

وهذه الجينات الميكروسكوبية البالغة الدقة هي المفاتيح المطلقة لخواص جميع البشر والحيوانات والنباتات ، والكستبان الذي يسع الصفات الفردية لبلونين من البشر هو بلا ريب مكان صغير الحجم ، ومع ذلك فان هذه هي الحقيقة التي لا جدال فيها ، فهل هذه الجينات والسيئوبلازمات تحبس كل الصفات المتوارثة العادية لجمع من الاسلاف ، وتحتفظ بنفسية كل فرد منهم ، في مثل تلك المساحة الضئيلة ؟ وما هو الحبوس هناك ؟ كتاب تعليمات ؟ صف من الذرات ؟

ودليل البعث في الآية الكريمة :

١ — أن يداً كونت الانسان هذا التكوين العجيب وابتدأت خلقه من تراب ثم من نطفة ثم من أمشاج ، أن يداً كونته ولم يكن شيئاً مذكوراً ، ليس من الكثير ولا من الصعب عليها أن ترد هذا المخلوق الى الحياة بعد أن يموت ، وبعد أن يصبح رميماً ، وبعد أن تتفرق أجزاؤه. بل وبعد أن تنفجر ذراته.

وأن علماً أحاط بتلك الهباءات المتبددة فجمعها من كل صوب ، وركبها خلایا ، ثم بناها جسماً ونفخ فيها روحاً ، ليس من الغريب ولا من البعيد عليه أن يكون محيطاً بتلك الهباءات بعد أن تتفرق وتتمزق فيؤلفا للخلق الجديد كما

في ظلال العقيدة ٣٢٩
ألفها من قبل للخلق الأول.

٢ — وأن قدرة هيمنت على هذا الكائن من قبل إن يوجد فأعدت له المناهج وألفت له العناصر وأخضعته للقوانين وعاقبت عليه الأوامر وأظهرت فيه الخوارق وتعهدته في كل أدواره بما تدعو اليه الحكمة وتبدو فيه القوة والمكنة ثم لم تزل مهيمنة عليه طوال حياته لا تغفل تديره لحظة ، ولا يستغني هو عنها في آن. أن قدرة هذه هيمنتها على كل انسان لهي قدرة مستطيلة مطلقة لايمكن أن يستعصي عليها شأن من شؤونه ولا حال مرتقبة من أحواله.

٣ — والنظام الذي خطط انشاء هذا الكائن ، والتطور الذي مرّ عليه حتى أصبح انساناً تاماً سوياً له حزمه ونشاطه ووعيه وادراكه ، هذا التطور الدائب الذي لا يقف ولا ينحرف يدلنا على ان الانسان إنما خلق للكمال ، والطبيعة إنما تدأب في تسييره لتبلغ به هذه الغاية ، والمرء انما يكدح في حياته ليبلغها كذلك. وقد أتمّ الدين له هذا المنهاج ، وضمن له بلوغ الكمال الأعلى اذا اتبع هداه.

وإذن فلا ينتهي طريقه بالموت.

ولا ينتهي مع هذه الحياة أبداً.

ماموت ؟.

وما حياة فيما الانسان الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم

شيئاً ؟.

هذان هما النهاية المحسوسة لنشأة الانسان هذه ، فهل يجوز أن يكون هما

النهاية الكبرى لذلك النظام الرتيب ؟ وهل يجوز أن يكونا هما الغاية

المقصودة من ذلك التدبير الحكيم ، ولتلك القدرة القاهرة ، ولذلك الدين القيم الحنيف ؟.

إنهما ابتسار لا بلوغ غاية.

* * *

﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(١).

وهذا مثال شاخص للبعث يعترض الانسان كل آونة ويراه في كل وجه.

للأرض حياة كما للانسان حياة.

للأرض موت كما للانسان موت.

نعم كما للكائنات الحية التي تتألف من عناصر الأرض ، وتحيا وتعيش على ظهرها ، وتغذي وتنمو من تراها ، كما لهذه المواليد حياة وموت فلائها الأرض كذلك حياة وموت. وما حياة البنين الا قبسة من حياة الآباء.

وحياة الأرض هي هذه الطاقة التي توقظ البذرة اليابسة في أعماقها فتجذر ، وتحيا الجذر الهامدة في تربتها فينمو ، وترفد الساق النابت في تراها فيفرع ، وتحبو الغصن من نشاطها فيورق ، وتهب الزهرة من روائها فتنضج ، وتؤتي الثمرة من زكاتها فتطيب وتركو.

هي مبعث هذه الحركة الدائبة الدائمة ، ومصدر هذا الجمال النضير البهيج.

ويأتي على هذه البقاع حين من الدهر. على هذه الأرض التي كانت

موطناً للخصب ، وسبباً للبهجة. يأتي عليها بذاتها حين من الدهر ليس بالمديد ، فاذا الحركة راكدة ، وإذا الحياة هامدة ، فلا إحياء لبذرة ولا إنماء لودية ، ولا إرفاد لغصن ولا إمداد لساق.

لقد جف ينبوع فلا رقد.

وخذت القوة فلا حركة.

وماتت الأرض فلا حياة.

ثم ماذا ؟.

ثم يتزل الماء فتنتفض الأرض انتفاضة الحياة ، وتفتح فروعها للروح الدافق ، وتنسط أساريها للنشاط البادي.

وتستأنف الحياة ، وتجدد الحركة ، ويعود الدور ، فاذا كل نابضة بتسم ، وإذا كل ذواية تزدهر.

(ترى الأرض هامدة) هذه هي الحالة الراهنة التي تكون عليها الأرض اذ تودع الحياة.

همود فلا حس ولا حركة يقول الله سبحانه في هذه الآية.

وحشوع فلا ندى ولا بلة كما يقول تعالى في سورة فصلت.

(فاذا أنزلنا عليها الماء) ونزول الماء يعني نزول العناصر التي فقدتها

الأرض ففقدت معها الحياة. (فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) وهذا

تحديد علمي لصفة الأرض وهي تستجد الحياة. تحديد يعترف به العلم

الحديث. يعترف به للحقيقة الثابتة. ولو أنصف لاعترف به كذلك القرآن

العظيم !!

ولفظ الاهتزاز هنا يعني ديب الحركة في الجسم مع ديب الحياة.

والربو انتفاخ الأرض وتفتح مسامها للعناصر الوافدة^(١).

أنزل الماء على الأرض الهامدة فاهتزت وربت ، إذن فقد استعادت الطاقة واستعادت الحياة واستعادت النشاط.

أما إنباتها من كل زوج بهيج فهو اثر يعلن عن الحياة وليس من مقوماتها. وفي سورة فصلت :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

هذا هو البعث احياء جسم فارقته الحياة.

وهذا هو النشور انتعاش حركة أحمدها الموت.

يحسه الانسان ويلمسه ولا يرتاب فيه ولا يجادل.

فلم يشك إذن ولم ينكر إذا أُخبر بمثل ذلك عن نفسه!؟.

إذا قيل له ستبعث وتنشر. ستعود لك الحياة بعد الموت. ستتألف

عناصرك بعد التفرق.

ستحشر وتحاسب. وستلقى جزاء ما قدمت من عمل إن خيراً فخييراً

وان شراً فشرأ!؟.

وبعد فان الاية الكريمة ذكرت نشأة الانسان الأولى وذكرت حياة

الأرض الثانية ونسقت بين المعجزتين في الدلالة على البعث ، ونسقت بينهما

في الدلالة على القدرة ، ونسقت بينهما في الدلالة على التدبير ، ونسقت بينهما

١ — ولفظ الاهتزاز في أكثر استعماله يشعر بنشوة تقارن الحركة واعتباط بموجها

فلعل ذلك هو السر في اختيار في الآية.

٢ — فصلت : ٣٩.

في ظلال العقيدة ٣٣٣
في الدلالة على الموجد المبدى المعيد وعلى علمه بما صنع ، وعلى حكمته فيما
دبر .

ومن يشك ومن يمتري في أن نقلة الانسان العجيبة في أطوار نشأته
الأولى ، من يشك في أنها تتطلب موجداً حياً يهب الوجود والحياة .
بصيراً يعلم دقائق العناصر ومختلف الخصائص ، ويحيط بما يؤول اليه
كل بسيط منها وبما يثمره كل تركيب .
قديراً تهيمن مشيئته على البسائط منها والمركبات ، وعلى المبادئ
والغايات .

مدبراً يوجه كل طور منها بما يوائم الحكمة ويتعهد كل نشأة بما تدعو اليه
الحاجة ؟!

ومن يشك ومن يمتري في أن احياء الأرض الميتة وإخراج النبتة الطرية
يستدعي أيضاً كل ذلك ؟

من يرتاب في ان استخلاص ثمرة شهية أو زهرة شذية من عصارات
يجود بها الطين ، وجزيئات يؤتيها الماء ، وغازات يمنحها الهواء ، و طاقة
تهبها اشعة الشمس ، من يشك في أن استخلاص ذلك يتطلب علماً بدقائق
علم الكيمياء وتفاصيل علم النبات ونواميس علم الحياة ، وبجزيئات
عناصر الأرض والماء والهواء والضوء ثم قدرة كاملة على مد جزيء
بحاجته ، وضم كل عنصر إلى إلفه ، وشد كل حجية إلى أختها وربط كل
طور بغايته ؟.

ومد الموجد القادر العليم المدبر كل فرد من بني الانسان ، وكل بقعة بقعة
من فجاج الأرض بالحياة ، وبالتدبير والنظام الذي لا يختلف وبالتطور

الذي لا يحيد وبالرعاية التي لا تغفل ولا تنسى.

فهو إذن دائم الحياة ، دائم العلم ، دائم القدرة ، دائم الاحاطة ، دائم الحكمة.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِّتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُمْ مَّن يُّتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾.

واثر هذه العقيدة عظيم في استصلاح القلوب ، واستصفاء الضمائر ، وتركية العلانيات والسرائر ، وربطها بالله مقدر الموت والحياة ، وواضع القوانين والجزاء ، ومن يده تصريف كل حركة واليه مرد كل نسمة. بالله الحيط بخلجات القلوب. العليم بذات الصدور.

فان الايمان باليوم الاخر وبالميزان القسط فيه ، وبالقضاء العدل ، وبالجزاء الذي يخاف ويرجى. هذا الايمان متى تفجر ينبوعه في النفس وامتدت مجاريه الى أكنافها ، وعم رواؤه كل نواحيها ، ومتى نهلته ونمت منه مشاعرها واستقامت عليه رغبتها وأشواقها كان قوة عاصمة للنفس من أن يغترها زيف أو يخذعها طلاء.

إن هذا الإيمان ينفذ بنظرها الى مكنون الحقائق وييدي لها جوهر الأعمال ويضاعف لها قوة الارادة ، فلا تنخدع بهوى مردٍ ، ولا تتزلق مع لاذة زائفة ، ولا تركز لما لا يحسن ، ولا ترتطم بما لا يسوغ ، ولا تزيع عما يجب . وتستمكن هذه العقيدة ، وتتضاعف هذه الطاقة ، ويتضخم هذا الرصيد ، فاذا بالانسان لا يعدو قانون الله قيد خطوة ، ولا يصدف عن أمره مثقال ذرة ، وإذا به عدل السر والعلن ، مستقيم الغيب والشهادة ، متزن الصفات والأعمال .

وتنشو هذه العقيدة في الأمة ، ويعم الإيمان بها أو يكاد ، وتتوثق في نفوس أفرادها وتتغلغل في دخائلهم ، وتسيطر على توجيه أعمالهم ومعاملاتهم وأخلاقهم وأشواقهم ، فاذا بالامة نموذج الأمانة الكاملة بين الأمم ، ومثال الصدق التام للمجتمعات .

الأمانة الكاملة على كل أمر حتى على مقدرات الحياة ، والصدق التام في كل قول وعمل حتى في أخرج المواطن .

وإذا بمعاني الحق والعدل والحب والخير والجمال تبدو في كل خلة من خللها ، وكل عمل من أعمالها ، واذا بصلاتها ووشائجها وعهودها لا تعقد الا حيث يأمر الله بان تعقد ، ثم لا تنقض الا حيث يأمر الله بأن تنقض . لاتعقد ولا تقوم إلا على تلك المعاني الانسانية النبيلة ، ثم لا تنقض ولا تضعف إلا من أجلها .

وإذا بالأمة متناصرة الآحاد متكثلة القوى موحدة الهدف والرأي والحركة فلا فوارق ولا فواصل ولا خصائص ولا طبقات ولا ملوك ولا صعاليك .

وإذا بسعادة الفرد منها هي سعادة الجماعة ، وإذا بصلاح الدين فيها هو صلاح الدنيا ، وإذا بخير حياتها هذه هو خير حياتها الأخرى ...
وإذا بعقيدة البعث تجمع للانسانية كل معاني الهدى وإذا بها تحقق لها كل أسباب الخير

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ^(١) ويوم الجزاء هو يوم التأويل ، يوم تأويل هذا الدين ، وتأويل كتابه المفصل على علم ، والمترل هدى ورحمة لقوم يؤمنون.

والتأويل هنا يعني ما يؤول إليه الشيء ، وما يؤتیه من ثمرة ، وما يرتبط به من غاية.

يوم الجزاء هو يوم التأويل الذي تستعلن فيه النتائج ، وتعرف فيه المصائر ، فمغتبط حظي بالهدى فاستحق الرحمة ووفور النعمة ، وخاسر قد خسر نفسه بخسران عافيته ، يتذكر حين لا ينفعه التذكر شيئاً ، ويتمنى حيث لاتغنيه الأمانى فتيلاً.

يتذكر رسلا مطهرين دأبوا لهدايته واحتملوا الأذى لاسعاده فلم يلق لنصحهم ، ولم يخش في تكذيبهم معرفة ، ويتذكر حقاً أبلغته الرسل عن ربه فلم يهتدي بنوره من ظلمة ، ولم يشتف بطبه من عمى ..

ويتمنى شفعاء الى الله ربّه الذي كذب رسله ووجد بهداه وألحد في آياته وكفر بنعمائه ، يتمنى إليه شفعاء يشفعون له عما فرط ، أو مرداً من الحياة الأولى يتلافى فيه ما قصر ، ومن له بالشفيع الذي لا يرد قوله ؟ و ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ؟ ﴾ ومن له برجعة ما ولى واسترداد ما خلى ؟

أما أمانى من خسر نفسه فحسر كل شيء وضلّ عنه ما كان يفترى وحق به ما كان يمتري.

* * *

وهذه النفس الجهول الغفول ؟.

نفس هذا الكائن الغريب الأطوار الذي يكاد لغريته يجمع بين المتناقضات !

نفس هذا الكائن المتهاف ، الذي يضم الى علمه الجم جهلاً مطبقاً ، وإلى ذكائه المفرط غفلة سادرة ، وإلى قوته المدهشة ضعفاً شائناً معيماً !!.

إنه مخلوق عميق الفكر حديد النظرة حين يستبطن مطالب الحياة أو حين يستعرض مقتضياتها ويتقصى ملابساتها ، وإنه شديد الأيد مرهف العزيمة قوي الشكيمة حين يتناول المطالب والبواعث هذه إنجازاً ووفاءً.

ولكنه كليل النظرة ، قليل التدبر في العاقبة ، واهن الارادة والقوة حين تتعرض له المغريات والمثيرات. وهو كذلك كليل النظرة قليل التدبر في العاقبة ، واهن الارادة والقوة أمام انفعالاته وعواطفه ، وهو كليل النظرة قليل التدبر في العاقبة واهن الارادة والقوة أمام العادات الاجتماعية التي

تحيط به وإن كانت شاذة ، بل وإن كانت خرافة وسخافة.

ومن أجل هذه المزالق التي يوافيها المرء أثنى اتجه به القصد. ومن أجل هذه المضاعف التي تتحكم بالانسان وتتغلب على سلوكه وتهوي بشخصيته وتقعده به عن سعادته ، من أجل هذه العلل الكثيرة الخطرة على نفس الانسان وعلى غايته وعلى مجتمعه أيضاً أطال القرآن في تذكيره بيوم الجزاء ، وفي عرض مشاهدته ووصف شدائده ، وتفصيل أحواله وتجسيم أهواله.

وإن التالي لآيات الله في كتابه العزيز المتبين لمراميها المتتبع لمواقع الإشارة فيها يجد أنه قد ربط تعاليمه كافة بهذه العقيدة حتى أوشك أن لا يغفل ذكرها عند حكم وأن لا يدع التصريح بها أو التلميح إليها في توجيه أو وصية أو إرشاد.

وهو يحذر الانسان أهوال يوم البعث وينذر فرعه ويخوفه عدله.

وقد سماه يوم البطشة ويوم الحسرة ، ويوم التغابن ، ويوم الوعيد ، ووصفه بأن السماء تكون فيه كالمهل وأن الجبال تكون كالعهن ... وسمى القيامة بالواقعة والقارعة ، والطامة والصاخة ، والآزفة والراجفة ... وذكر الموازين القسط ليوم القيامة والصور والعرض والأشهاد والأصفاد والأغلال والانكال والنعيم والمقيم والعذاب الأليم.

ثم هو يصور المواقف المرعبة ليوم الفصل ، ويعرض المشاهد المخيفة التي تنتظر الانسان فيه والنهايات المسعدة أو المخزية التي تعقبه. نهايات المطيعين المتقين في جناتهم ورضوانهم ، ونهايات العاصين المتمردين في شقائهم ونيرانهم.

وهو يهز المشاعر المختلفة ، ويحرك الاحساسات المتنوعة وينبه الوعي الغافي ، ويوقظ الضمير الغافل ، ويكشف للبصيرة ما ينتظرها من عاقبة مسرة أو مغبة محزنة ، ويحذر الغفلة ، ويخوفها النكسة ، وما يكون لها أن تغفل وما يكون لها أن تهزل وما يكون لها أن تنتكس وقد عرفت أسباب الانتكاس واستبان لها سبل العافية ، وما يكون لها أن تغر وما يكون لها أن تتردى فكل عمله عليه رقابة وكل عمل عليه جزاء.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ﴾^(١). ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾^(٢).

وحق ما تنطوي عليه الجوانح وما تم به المشاعر عليه رقيب لا يجهل ولا يغفل ، وحسب لا يضل ولا ينسى ، ومجاز لا يحيف ويخادع.

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٣).

وبعد كل هذا فعون الله ورحمته ورأفته ومغفرته تقيل العاثر وتقبل النادم ، وتجيّب المضطر ، وتؤمن الخائف ، وتقوي الضعيف وتؤنس المستوحش.

هكذا يشد القرآن أزر المسلم ويمسك بعضده ويسدد خطاه ويقيه المزالق فلا يدع للغفلة إليه سبيلاً ولا يترك للضعف ولا لليأس على ارادته دليلاً ، وهذه بعض مرامي الأدلة الغفيرة التي حثت على تلاوة الكتاب

١ — القمر : ٥٣ .

٢ — الطور : ٢١ .

٣ — الملك : ١٣ — ١٤ .

والتدبر في آياته.

إن المسلم لن يغفل ولن يجهل ، ولن يخور ولن يذل فكتاب الله قائده
وسائقه ، يرشده في كل خطوة ويسدده عن أي كبوة.

هذا هو دين الله في ينابيعه العميقة المكنية من نفس الانسان ، ومن
فطرته ، ومن ركائز الكمال فيه ، ومن أشواقه الذاتية الملحة التي تدفع به الى
التسامي ، وتتنكب به عن الهون ، وترتفع به عن سفسافة الأمور ونواقص
الأعمال والصفات.

ومن الاتساق الكامل الشامل الذي يجب أن يتحقق بين نظام الانسان
في السلوك ونظمه الأخرى في طبيعته وسائر النظم الكونية التي يزخر بها
الملكوت.

ومن هذا الوله الاجتماعي الذي يذبُّ عليه الانسان ويشب ، والذي
يعقده بنوعه عقدة الجزء ب كله ، ثم من هذا الاجتماع الضروري للبشر من
شئ نواحيه والذي تقتضيه فطرته وتقتضيه طبيعته وتقتضيه خصائص
تكوينه وفاقاته حياته ، وهذا الاجتماع الذي لابدَّ فيه من تعميم الروابط ومن
تقرير الحقوق ، ومن ضمان السلامة والثبات للروابط المحددة ، والحقوق
المقررة.

ومن النظرة العميقة المستوعبة لطاقت هذا الكائن ولضروراته
وملابساته ، ثم التوزيع الدقيق العادل لكل ضروره حسب ماتقتضي ولكل
ملابسة قدر ما تستوجب ، ومن كل طاقة مبلغ ما تحتمل.

وهذا هو دين الله في عقائده القويه الجلية التي تجري مع الفطرة في

في ظلال العقيدة ٣٤١

بساطتها ومع البرهان في قوته ، ومع حقائق الكون في ثباتها واطرادها ، فلا تعتاص على الذهن البدوي البسيط ، ولا تضوى في الفكر الفلسفي العميق ، ولا تلتاث على اي باحث مهما كان وعيه ومهما كانت طريقته ، مهما كان وعيه في الادراك ومهما كانت طريقته في الاستنتاج ، شريطة ان لا يحمل فكره على نتيجة مقتسرة أو يلجئه الى غاية مبتسرة ، وشريطة أن يؤثر الحق في بحثه ، وأن ينصف العقل في اقتناعه.

هذا هو دين الله في عقائده التي تمتد آثارها الى كل وصية من وصايا الدين ، تنفذ أضواؤها الى كل خليفة من خلائق المسلم ، والتي تصوغ المؤمن بها حق الايمان مخلوقاً جديداً لا يعرف الكسل ولا الفشل ولا التردد ولا الالتواء ، بل كله للجد وكله للحزم وكله للاستقامة وللفضائل البناءة وللسعي المبارك المثمر.

وهذا هو دين الله في غايته الجامعة التي أعدّها للانسان بتكوينه ، وأعد لها بطبعه وأعد لها بغرائزه وأشواقه.

في غايته التي تواكب غايات هذا الوجود وتتآصر مع حركاته ، وتنظم مع قوانينه وترتبط معه بمبدأه ومعاده.

في غايته التي تغذي اشواق هذا الكائن ، وتحقق آماله ، وتجلبو خصائصه ، وتستثمر نشاطه ، وتعتلي مملكاته ، وترتفع بزعاته والتي توجب له خلود الحياة ، وخلود السعادة ، وخلود الكمال ، والتي تشد الفرد منه بمجتمعه ، وتشد الفرد والمجتمع منه برّيه.

وهذا هو دين الله في مناهجه القويمة التي تصلح البشري في سره وعلايته ، وفي سكونه وحركاته.

في أبطن البواطن من ميوله وعواطفه وخلجاته وانفعالاته ، وفي أظهر الظواهر من أخلاقه ومظاهره وأعماله وأقواله.

في ركائز تربيته ومناهج تثقيفه وطرائق تعليمه.

في وشائجه المختلفة ، ووظائفه المتنوعة.

في عبادته لله حين يعبد ، وفي سعيه في الحياة حين يسعى ، وفي صلته مع الناس إذ يتصل ، وعزلته عنهم إذ يعتزل.

في حبه وكرامته ، ورضاه وغضبه ، وعداوته وصدقته.

في خصومته حين يخاصم ، وسلمه حين يسالم ، وفي مناهج حكمه وموازن حربه وسلمه.

في مزرعته وهو يزرع ، أو في مصنعه وهو يصنع ، أو في متجره وهو يتجر ، أو حرفته وهو يحترف ، ثم في جهده وهو يجهد ، وفي راحته وهو يستجم.

في صلته بالمالك إذا كان عاملاً ، ورابطته بالعمال إذا كان مالكاً ، وبالعملاء إذا كان ممتناً.

في أوامره مع أرحامه الأدين ومع أصدقائه الأقربين ومع شركائه في الأسرة وزملائه في العمل ، ثم مع اخوانه في الدين وأكفائه في البشرية ، وفي الحقوق التي تجب عليه لأي واحد من أولئك كلهم والواجبات التي تثبت له عليهم ، والضمانات التي تصان بها الحقوق والواجبات.

هذا هو دين الله في مناهجه القويمه التي تصلح البشري في كل انحاء ، وتصف له العلاج الواقي من كل أدوائه ، وتسد كل ضرورة له في الحياة وتجب كل تطلع في الفطرة وتروي كل غلة.

وهذا هو دين الله في أدلته وبيئاته ملء الملكوت الرحب ، وملء الفضاء العريض ، وملء هذا الكرسي العظيم الذي وسع السموات والأرض ، وبعدد ما في الفضاء من مجرة ، وعدد ما في المجرات من شمس ، وعدد ما يتبع كل شمس من كوكب وقمر ، وبعدد ما في الفضاء والنجوم والكواكب والاقمار من مركب وبسيط ، وبعدد ما في ذلك من ذرة ، وبعدد ما فيه من طاقة وبعدد ماله من نظام وما فيه من قانون ..

كل أولئك دليل الارتباط بقوانين الله ودليل الخضوع لحكمته في ما يدبر ، والإسلام لارادته في ما يقدر ، كل أولئك دليل الدين الحق والشرعية الصواب ، شرعية الله التي يجب أن يقررها لهذا الكائن كما قررها لكل كائن.

وكل أولئك دليل الإسلام على قواعده وعقائده وعلى منابع القوة فيه ، ومجالي الحكمة في شرائعه.

ثم هذا هو دين الله في مراميه البعيدة من وراء تلك العقائد ، ومن وراء تلك المناهج ، ومراميه العالية التي تمكن لغاياته الكبرى. في اعلاء هذه الحياة ، وتطوير شؤونها وترقية فنونها وإصلاح حركاتها وفتح مقفلاتها.

إن إرساء العقيدة في هذا الدين وتثبيت دعائمها وشد أركانها لن يقوم إلا على تعرّف خبايا الكون ، وتفهم أسرار الخلق ، والوقوف على مدهشات الحياة ، والتدبير في روائع الطبيعة ، لن يقوم إلا على التفكير الجاد في ملكوت الله ، والتأمل العميق في مظاهر حكمته وشواهد قدرته. وهذه أولى معاقده مع العلم تبدأ مع أولى انطلاقة من الدين ، وأول إعداد لترقية الحياة يضعه الإسلام مع أول همسة له في مسمع الانسان.

وان استبانة مناهج الله المشروعة لاصلاح هذا المخلوق وتزكية ملكاته وتنمية مواهبه ، وتقويم غرائزه وطباعه ، وتوجيه قواه وطاقته ، ان استبانة هذه المناهج واستيضاح دقائقها واكتشاف ينابيع العدل وروافد القوة فيها. ان العلم بذلك حق العلم يفتقر الى دراسة هذا الانسان من شتى نواحيه وشتى أطواره وشتى علائقه ، ودراسة نوااميس الكون التي تحكمه ، وانظمة الحياة التي تسوده ، وقوانين الطبيعة التي تشملها ، ومقادير الضرورات التي تحدد به والطواريء التي تنتابه ، يفتقر الى دراسة كل هذه المناحي من الانسان ومن بيئته الطبيعية دراسة دقيقة مستوعبة ، ليعلم بعد ذلك دقة الحكمة في هذه المناهج ، ومبلغ العدل في ملاحظاتها ومرامي التشريع فيها.

وان إسعاد البشر والارتفاع بمكانته ، والتحليق بفردته ومجتمعه الى المتزلة السابقة الكريمة التي أهل لها لما استخلف في هذه الأرض واستعمر فيها. لما جعل السيد المطاع والرئيس المرموق على ظهر هذا الكوكب. لما أودعت فيه هذه النفخة من روح الله وهذه القبسة من نوره. لما كرمه الله وحمله في البر والبحر ورزقه من الطيبات ، وفضله على كثير مِمَّن خلق تفضيلاً.

إن إسعاد البشر والارتفاع به الى المتزلة الخطيرة يفتقر الى تفقيهه أسرار الحياة وتبصيره مدارج الرقي فيها ، ووضع يده على مفاتيح كنوزها ومقاليده رموزها. وهذا ما دأب فيه الدين وبذل له أقصى جهده ، وأناط به وفرة كبيرة من تعاليمه.

وبعد فان الحركة في الحياة لتند وتشد ، وان القوى المحركة لها لتخرج عن

في ظلال العقيدة ٣٤٥

الاتزان والاتساق ، وان سبل الانطلاق فيها لتعول وتبحور ، فهي محتاجة أبداً إلى الاصلاح ، وهي محتاجة أبداً إلى القوامة.

ومن أحق باصلاحها من الله باريء وجودها ومنشيء قواها وواضع

قوانينها ؟

ومن أولى بالقوامة عليها من الانسان ... من هذا المخلوق الواعي الذي

يملك الشعور ويملك الارادة ويقوى على الاصلاح ؟.

فليشرع له ربّ قوانين الاصلاح ، وليتولّ هو دور التطبيق والرعاية.

ليشرع ربّ الحياة قوانين الاصلاح فيها لأنه شارع انظمة الكون وعالم

أدوائه ، وليتول الانسان دور التطبيق لتلك الانظمة ، فان الرقي بالحياة من عمله ، وان الانتكاس فيها من زلله.

وإنها لكرامة كبيرة لابن آدم أن يكون ربه هو الناظر له في شؤونه

والزعيم بسعادته والكافل بتوجيهه وإنها لكرامة كبيرة كذلك إن يعهد اليه

بالقوامة على الحياة ، والتقدم بها في شتى الميادين ، والارتقاء بها في

مختلف النواحي.

إنها لكرامة كبيرة مضاعفة لابن آدم أن يشرع له ربه القوانين وأن يتولى

هو تطبيقها ، ومن الغرور أن يظن بنفسه اكبر من هذه القدرة ، ويدعي لها

أسمى من هذه المثلة. ولقد جرب نفسه في شتى عصوره أنه لا يستطيع ذلك

إذا صدف عن هدايات الله وتنكب شرائعه.

بلى قد يحصر اهتمامه في ناحية أو أكثر من نواحي حياته فيسمو بها

حتى يوفي على الغاية أو يكاد ، على حين أن الضعف الانساني يتجمع

عليه في نواحيه الأخرى فيهبوي بها هويّاً يساوي رقيه في تلك أو

يزيد ، فرقي الانسان الغربي مثلاً في حضارته المادية أمر لا ينكر ، ولكن هبوطه بل سقوطه في موازين الخلق وضعفه في قيادة الروح شيء لا ينكر أيضاً.

هذا هو دين الله في ملامحه الجليلة التي لن تحتفي على ناظر ، وفي براهينه القوية التي لن تحتفي على شاعر ، وفي مميزاته الفريدة التي لن تلتبس على منصف ، وفي خصائصه العظمية التي لن يعدوها حق ، ولن تتجاوز عن عدل ، أقدمه لقرائي في هذا المجهود ، فان كنت احسنت التقديم فذلك حسي والحمد لله كفاء فضله ومبلغ علمه.